الفصل الرابع

الصهيونية فى ميزان النقد من المنظور الدينى

الأسطورى فى رواية (عيسو) لـ "مئير شاليف"

obeikandl.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

عيـــسو

لم يعبأ مئير شاليف بموجة الغضب العارمة التى شهدتها الساحة الأدبية فى إسرائيل بعد صدور روايته (رواية روسية) ؛ وفوجئ النقاد الإسرائيليون برواية جديدة لـه تواصل تهكمها على المشروع الصهيونى، وتدحض كل الأساطير التى روجت لـها الصهيونية، لتأتى لنا بعملية تقييم أخرى لكل الإخفاقات التى وقعت فيها الصهيونية على كل المستويات السياسية والأيديولوجية.

لقد شهـــدت الساحة الأدبيـــة فى إسرائيل سجالاً جديداً بين النقاد حـول رواية (عيسـو)[1]، وهدف شاليف وراءها ؛ وبخاصة أنه تعامل مع العهد القديم فى الرواية على أنه مجموعة من القصص الأسطورية غير الموثوق فيها. وهو الأمر الذى جعل شاليف يتعرض لـهجوم عنيف من قبل بعض النقاد الإسرائيليين، ومن دوائر اليمين الصهيونى المتطرف، واتهمه بعض النقاد بأنه يعمل من أجل هدم الأساطير القومية التى آمن بها الشعب اليهودى على مر العصور، واعتبرها مصدراً مهما للتاريخ اليهودى.

ويشير لنا عنوان هذه الرواية إلى أنها تتعرض لقصة الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين على خلفية قصة اغتصاب " يعقوب " للباكورة من أخيه البكر "عيسو"، وهو ما أدى إلى احتدام الصراع بينهما. كما أنها تتناول قصة الخصومة بين توءمين على تركة والدهما من خلال التعرض لأسرة خبازين، ولم تقتصر الخصومة على التركة فقط، بل امتدت لتشمل المرأة أيضاً والصراع عليها باسم الحب.

ويقول الناقد الإسرائيلى " هليل فايس " فى معرض تناولـه بالتحليل لـهذه الرواية: " إنها رواية تحكى لنا عن التنازل الكبير الذى حدث، والذى لم يكن تنازلاً عن الباكورة فحسب، بل هو تنازل عن المرأة والحب، وعن المخبز والخبز. إن هذا التنازل لم يكن فقط تنازلاً عن الأرض، أى فلسطين، بل أيضاً تنازل خاص عن الحياة بصفة عامة "[2].

أما " حنة يعوز " فيرى " أن هناك متعة فى قراءة هذه الرواية، لأنها تثير العواطف لدى قطاع معروف من القراء. بينما ينصب قطاع آخر من القراء من نفسه هيئة قضائية للحكم عليها، وأحياناً يكون الحكم فى صالح الرواية ... وأحياناً أخرى فإن الحكم لا يقتصر على كلمات الثناء والمديح فقط "[3].

([1])مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، دار نشر عم عوفيد، الطبعة الـــ11 تل أبيب، 1996، (397 صفحة).

([2])هليل فايس: " عليلاه، سفروت هاكلايون هايسرائيليت "(الحبكة، أدب الـهلاك الإسرائيلى)، مرجع سابق، (ص125).

([3]) حنا ياعوز: " رومان عيساف " (رواية عيسو)، مجلة " عيتون شيفعيم فشيفع " العدد 141، أكتوبر 1991 (ص16).

" ورواية (عيسو) هى بمثابة امتداد طبيعى لرواية (رواية روسية) فى محاولة تحطيم الأساطير التى اعتمدت عليها الصهيونية ورفضها ؛ حيث تواصل رواية (عيسو) هذا النهج من حيث انتهت رواية (رواية روسية) ؛ فبعد أن جعل شـــاليف حقوق الشعبين (الفلسطينى واليهودى) فى (رواية روسية) على قدم المساواة، انتقل فى رواية (عيسو) ليفند مزاعم اليمين الصهيونى المتطرف الذى يقوم بنهب الميراث، مطالبا برفع الغبن الذى وقع على نسل عيسو من الأبناء الذين ذاقوا مرارة أطماع يعقوب ونسلـه. وهكذا فقد اهتم شاليف فى الروايتين بالإعلان عن فشل الصهيونية وفشل مشروعها الأساسى، وهو دولة إسرائيل " [1].

القصة التوراتية:

إن التعرف على الخلفية التوراتية لرواية (عيسو) هو أمر مهم، يتسنى لنا من خلالـه إدراك عملية الإسقاط التى حدثت فى هذه الرواية، لاسيما أن شخصيات الرواية تتفق تماماً مع شخصيات العهد القديم فى الاسم والقصة تقريباً، حيث تعتمد هذه الرواية على شخوص وأحداث القصة التوراتية فى عملية السرد الروائى.

يحكى لنا سفر التكوين فى الإصحاحات من 27 إلى 33 عن قصة الخديعة التى تعرض لـها " عيسو " من قبل أمه " رفقا " وأخيه " يعقـوب"، حيث شاخ " إسحق " أبوهما وضعف بصره، وكان علـى وشك أن يبارك ابنه " عيســو "، " إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه " (إص 27: 5) فلما سمعت " رفقا" ذلك الحديث، اتفقت مع " يعقوب " فى أمر اغتصاب الباكورة من أخيه " عيسو " فألبسته ملابس " عيسو " وقدم لـه يعقوب الطعام على أنه "عيسو " فباركه " إسحق "، فلما علم " عيسو " بهذا الأمر صرخ صرخة عظيمة، وقال لـه " إسحق " : " إنى قد جعلته سيداً لك، ودفعت إليه جميع أخوته عبيداً " (إص 27: 37). بعدها " رفع عيسو صوته وبكى " (ص27: 38) ثم قرر قتل يعقوب، فخافت "رفقا" على ابنها الأصغر يعقوب وقررت أن تهرب به إلى حاران حيث يقيم أخوها لابان هناك. وفى طريقه إلى حاران يبيت "يعقوب" فى مكان ما ويحلم حلماً يباركه فيه الرب، " الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك " (ص 28: 13). وعاش يعقوب لدى خالـه وتزوج من ابنتيه" راحيل وليئة "، أما "عيسو" فقد تزوج من بنات إسماعيل بن إبراهيم. ولما حاول يعقوب العودة إلى حيث يقيم أبوه أرسل رسلاً إلى أخيه "عيسو"، وجاءه الرسل ليخبروه بأن "عيسو" قادم للقائك ؛ فخاف وضاق به الأمر (إص 32)، وقسم قومه وغنمه وبقره إلى جيشين، ودعا الرب أن ينجيه من خطر أخـيه "عيسو"،

(1) د. رشاد عبدالله الشامى: أدب ما بعد الصهيونية، مرجع سابق، (ص 38).

ونيته فى الانتقام لسرقة الباكورة والبركة، " نجنى من يد أخى من يد عيســـو ؛ لأنى خائف منه أن يأتى ويضربنى " (ص32: 11)، ثم حاول أن يكســـب ود أخيه ؛ وبإرسال هدايا وفيرة لـه " مائتى عنز وعشرين تيساً ومئتى نعجة وعشرين كبشاً. ثلاثيـن ناقة مرضعـة وأولادها أربعين بقرة وعشرة ثيران وعشرين أتاناً وعشرة حمير " (ص 32: 14 –15) وعندما يلتقى الاثنان، حيث كان "عيسو" على رأس جيش مكون من أربعمائة رجل، يسجد يعقوب على الأرض سبع مرات، فيعانقه "عيسو" ويقبلـــه، " فركـــض عيسو للقـــائه وعانقه ووقع على عنقـه وقبـــلـه باكياً " (ص 33: 34). ثم تمضى أحـــداث القصة التـــوراتية ويموت "إسحق" فيدفنه "عيسو" ويعقوب معاً.

وهكذا تنتهى القصة التوراتية، بعد أحداث درامية، شكلت الوجدان اليهودى على مر العصور وجعلت الصراع على الأرض يمكن حلـه، من خلال رحيل أحد الطرفين بكل بساطة لينعم الآخر بالأرض وينعم بالحياة لتصبح أرض الوعد الإلـهى ليعقوب وأحفاده فقط.

القصة الروائية (عرض مختصر):

تمضى أحداث رواية (عيسو) لتحكى لنا عن أسرة " أبراهام ليـفى " وهى أسرة خبازين، حيث تزوج أبراهام من " سارة " التى تعود جذورها إلى إحدى الأسر المتهودة، وينجبان التوءمين " عيسو " و " يعقوب " اللذين يقومان بمساعدة أبيـهما فى المخبز الخاص بهم، ويقومان بتوزيع الخبز على سكان المدينة. ويلتقى الاثنان بـ "ليئة " فيتنافسان على حبها. وتسير بنا أحداث الرواية لتذكرنا بقصة الخديعة التى حدثت فى القصة التـــوراتية بين " رفقا " و " يعقوب " ضد " عيسو " ؛ حيث تقف الأم فى الرواية مع ابنها " يعقوب "، وتساعده فى الزواج من محبـــوبته " ليئة " والفوز بها. ولم يكن هذا فحسب، بل لعنت " عيسو "، وجعلت " يعقوب " يرث المخبز بمفرده، ويسافر بعدها " عيسو " إلى أمريكا دون أن تودعه أمه "سارة"، وتفتح أمريكا ذراعيها إليه ؛ فيعمل هناك فى مجال الكتابة ؛ ويؤلف كتباً عن الخبز والخبازين، وينشر مقالاته فى المجلات الأمريكية.

وبعد زواج " يعقوب " ينجب ابنه البكر " بنيامين "، الذى يجند فى الجيش ويقتل خطأ بعد تبادل لإطلاق النار بين وحدتين عسكريتين إسرائيليتين، بعدها تحزن " ليئة " على ابنها، وتنام فى فراشه سنوات عديدة، ويفكر " يعقوب " فى من سيرث المخبز من بعده، فيضاجع " ليئة " عنوة وينجب منها " ميخائيل " الذى يولد مريضاً ؛ فهو لا يشعر بالألم مطلقاً، حتى فى أثناء ختانه لم يصرخ أو يتألم. ويسعد "يعقوب" بميخائيل ويحافظ عليه، ويرعاه رعاية كاملة، حيث كان يفحص جسده يومياً خشـــية أن يكـــون مصاباً أو مجروحاً، ويأمر " شمعـون " ابن شقيقته " دودوتش " بمراعاته، حيث تعيش فى بيت "

يعقوب " وتشتهر برضاعة أطفال المدينة، لأن أحد ثدييها يدر لبناً منذ أن قطع الآخر على يد أعرابي.

ويبدو أن "ميخائيل" لم يكن مناسباً ليصبح الوريث البديل لبنيامين، فيتم استدعاء "عيسو" من الولايات المتحدة ؛ ليرعى والده المسن "أبراهام ليفى" بعد موت زوجته "سارة". وتقف "رومى" ابنة "يعقوب" مع عمها "عيسو"، حيث تربطها به علاقة حب وود منذ أن كان فى أمريكا، فى إشارة من "شاليف" بأن الجولة الثانية فى الصراع بين "عيسو" و"يعقوب" سوف تكون فى صالح "عيسو" بعد خسارته للجولة الأولى.

وتتكون الرواية أيضاً من ثلاث قصص فرعية مستقلة، إلا أنها تخدم حبكة الرواية وموضوعها، وتضيف غرابة فى السرد الروائى والبناء القصصى. وقد حملت القصة الأولى عنوان (الدوق انطون والخادمة زوجا) وتحكى عن الدوق، وغرامه بالعاهرات فى القدس، والتردد على أماكهن. أما القصة الثانية فكانت بعنوان (إلياهو سالومو ومريام إشكنازى – قصة قريبة من الحقيقة عن أشخاص غير حقيقيين) وفيها نجد "سالومو" وقد تخصص فى كتابة بعض إصحاحات العهد القديم من سفر التكوين الذى تتحدث عن الخصومة بين "عيسو" و"يعقوب" ؛ وتدور أحداثها فى القدس أيضاً. والقصة الثالثة فى الرواية جاءت بعنوان (شمعون ناتان وبنات ايلدمان) ويبدو أن شاليف اختصر أحداث الرواية الرئيسية فى هذه القصـة، حيث تعرض باختصار لزواج "أبراهام" من "سارة " وإنجابهما لـ"عيسو" و"يعقوب"، ثم زواج يعقوب وانجابه " لبنيامين " و " ميخائيل " . وتتحدث هذه القصة عن العمة " دودوتش " وثديها الذى لم يتوقف عن إرضاع الأطفال وعن ابنها " شمعون ناتان " الأعزب والأعرج وإعجابه ببنات " ايدلمان " الذى كان يعمل لدى "يعقوب" فى المخبز.

ولعلـه من الأهمية، ونحن بصدد تحليل إحدى الروايات التى تفند مزاعم الصهيونية بادعاء الحق الدينى لليهود فى أرض فلسطين، أن نتعرف على موقف الصهيونية من العهد القديم وعلاقتها به فى مسألة الصراع حول الأرض، لاسيما أن الحبكة الروائية تدور كلـها حول الوعد الإلـهى الذى منحه الرب ليعقوب، وحول اغتصاب الباكورة من " عيسو " واعتماد الصهيونية على بقاء التركة فى يد أحد الأخوين كحل نهائى لقضية الصراع بين " عيسو" و"يعقوب " حول الأرض. وهو حل وصفه " شاليف " فى روايته هذه " بالأسطورة " .

موقف الصهيونية من التراث الدينى اليهودى:

تعامل المؤرخون اليهود مع الأيديولوجية الصهيونية على أنها حركة قومية مثل الحركات القومية الأوربية التى نشأت فى القرن التاسع عشر، ولكنهم لم يستطيعوا فى نفس الوقت،

إنكار أنها تختلف عن سائر الحركات القومية الأوربية فى افتقارها لبعض مقومات القومية مثل الأرض واللغة. ومن هنا صـارت الصهيونية إشكالية معقدة لم يدرك المؤرخون بعد، كيفية تصنيفها ووضعها فى مقام الأيديولوجيات الأخرى، وتساءل الكثيرون عن ماهية الصهيونية وتحديد طبيعتها كحركة قومية.

وبدت التساؤلات تثير نوعاً من الإشكاليات المعقدة حول ربط الصهيونية بالتاريخ العام لليهود وبتراثهم الدينى أيضاً، سواء فى الماضى أو فى الحاضر. وفى حقيقة الأمر، كانت الصهيونية دوماً سبباً فى وجود هذه الإشكاليات المعقدة بتبنيها كثيرا من الاتجاهات السياسية والدينية والثقافية على كافة الأصعدة، وباختلاف روادها تجاه مناحى التقدم نحو تحقيق الـهدف فى إقامة وطن لشتات اليهود.

ولم يكن موقف الصهيونية من التراث الدينى اليهودى إلا إبحارا فى قضية شائكة جعلت الكثير من الباحثين يتساءلون، " هل هى حركة قومية تعبر عن الواقع السياسى لليهود ومتأثرة بالحركات القومية الأوربية التى نشأت بينها أم أنها حـركة دينيـة نابعة من الفكر الدينى اليهودى، ومستمدة لأفكارها ونظرياتها من التراث اليهودى "[1].

وأدت هذه التساؤلات فى نهاية الأمر إلى نوع من اللبس لدى بعض الباحثين، فقد استخدم الكثيرون كلمتى صهيونية ويهودية ككلمتين مترادفتين، على الرغم من أنهما تختلفان تماماً ؛ فالصهيونية هى حركة سياسية دنيوية، بينما اليهودية هى دين سماوى استغلـه بعض القادة الصهيونيين كأداة أو وسيلة فى تحقيق هدفهم، حينما استخدموا التوراة والنصوص الدينية الخاصة بالأرض كوسائل لازمة لتقوية الروح الجماعية الدينية بالشعور القومى.

" ومعظم القادة الصهيونيين لم يعيروا اليهودية أى التفات إلا باعتبارها مشكلة تبحث عن حل، وعنى المستوطنون الصهاينة عناية غير عادية بالتأكيد عن الطبيعة اللا دينية وغير التقليدية لمشروعهم، ولعل هذا هو ما دفعهم إلى أن يتخلوا عن لقب (اليهود) وتبنوا لقب (العبرانيين) بدلاً منه، أى أنهم حاولوا إعادة تعريف أنفسهم على أساس قومى محض يحل محل الأساس الدينى التقليدى. ولعل ما يشير إلى ذلك، هو أن ارتباط اليهودى بصهيون (فلسطين) هو ارتباط دينى فحسب، فصهيون هى المكان الذى اختاره الرب واصطفاه، ولذا عدّ الاستيطان فى الأرض المقدسة واجباً دينياً أو عملاً خيرياً بالمعنى الدينى للكلمة. ومن هنا تكون فلسطين، كمـا يقول المهاتما غاندى، ليست موقعاً جغرافياً – بالمعنى الدينى – وإنما هى فى قلوب اليهود، وصهيون هنا مفهوم دينى يتجاوز حدود الطبيعة والتاريخ وكل ما فيها من نظام أو فوضى. وهذا التمييز الدقيق بين الواقع المادى والمفهوم الدينى لا

(1) د. محمد خليفة حسن: الحركة الصهيونية وعلاقتها بالتراث الدين اليهودى، مرجع سابق، (ص 17).

يتفق مع الرؤية الصهيونية، لقد أصيب الصهيونيون بالحيرة عندما اكتشفوا معارضة الحاخامات للدعوة الصهيونية الخاصة بالعودة (المادية) والجسدية إلى صهيون، لأنهم كانوا يحثون اليهود على حب صهيون، ولكن بالمعنى الدينى للكلمة "[1].

ولكن من الأهمية أن نشير إلى أن هذه المعارضة للصهيونية من قبل اليهود الدينيين " كانت ذات طبيـعة برجماتية، ولا تنصرف أبداً إلى طبيعتها كحركة استعمارية استيطانية إحلالية. وعلى الرغم من نجاح الصهيونية فى تسلم مقاليد القيادة فإن موقف أعضاء الجماعات اليهودية من الحركة والدولة الصهيونية يتسم بكثير من التركيب، فبعض اليهود يرفضون الصهيونية من منظور دينى وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى قسمين: (الأرثوذكس)، الذين يعدون الحركة الصهيونية حركة علمانية، تجعل من اليهود أمة بالمعنى العرقى العلمانى للكلمة بما يتنافى مع تعاليم الدين اليهودى، التى تجعل اليهود شعباً بالمعنى الدينى، ترتبط هويته بمدى تنفيذه للأوامر والنواهى، ويرى الأرثوذكس أن الصهيونية حركة (مسيحانية) زائفة تتحدى الإرادة الإلـهية، فيما يسقط (الإصلاحيون) الجانبين (الإثنى والقومى) ويجدون فى الصهيونية دعوة إلى القبلية وضيق الأفق وحرفية التفسير "[2].

وقد تجاوزت الصهيونية كل هذه الخلافات، ورأت أن المصلحة القومية تقتضى العمل على استخدام كافة الوسائل لتحقيق كل الغايات؛ فاستقلت قطار اليهودية، وحاولت إرضاء الحاخامات اليهود وتقريبهم إلى برنامجها الاستيطانى القومى.

وفى حقيقة الأمر، لم يكن إقحام الطابع الدينى على الحركة الصهيونية إلا وسيلة من وسائل جذب شتات اليهود نحو هذه الأيديولوجية، وإضفاء طابع دينى قومى عليها، ومحاولة من قبل القادة الصهيونيين لمداعبة مشاعر اليهود الدينية باستخدام النصوص التوراتية التى تتحدث عن الوعد الإلـهى بمنح بلاد كنعان لليهود، لتتزين الحركة الصهيونية، فى النهاية، بادعاء الحق الدينى لليهود فى فلسطين. وهى إشكالية تعنى فى نهاية المطاف، أن اتجاه القادة الصهيونيين نحو فلسطين لم يكن نابعاً من محاولة تحقيق ما يسمى بالوعد الإلـهى، ولعل مشروع (أوغندا) لتوطين اليهود فيها الذى قبلـه هرتسل وبعض القادة الصهاينة الدينيين باعتبار أن الاستيطان فى صهيون لا يمكن أن يتم إلا بعد عودة المسيح المخلص، خير دليل على ذلك.

ولا يمكن أيضاً إنكار حقيقة معارضة الحاخامات اليهود لـهذه الحركة التى رأوا أنها تعجل بنهاية اليهود كما ردد بعضهم، وقد حاول "هرتسل" تخفيف حدة التوتر التى

(1)انظر: د. عبد الوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، مرجع سابق، (110ـ112).
(2)د. عبد الوهاب المسيرى: يهود العالم، دليل إسرائيل العام، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1996 (ص150).

اجتاحت الأوساط الدينية بمقولته الشهيرة بأن (الصهيونية هى العودة إلى اليهودية قبل العودة إلى دولة اليهود) وهو بذلك، " لم يخاطب اليهودية وفق المفهوم الروحانى أو الدينى بل كان يسعى إلى ما يمكن أن يسمى بـ(اتفاق قومى)، أى الاستعداد للاعتراف بإطار قومى عام على الرغم من الاختلافات فى المعتقدات وفى الآراء " [1].

ويعلق شموئيل الموج على مجهودات هرتسل فى تقريب الحاخامات الصهيونيين إلى الصهيونية دون تسليمهم الحركة وعلاقته بهم بقولـه: " برزت هذه العلاقة فى القصة التى رواها رءوبين برينين (1862 – 1939) عن المؤتمر الصهيونى الأول والتى جاء فيها: أقبل عدد من الحاخامات على هرتسل لسبر غوره، ولكنهم خرجوا من المقابلة مسرورين ومرتاحى البال. وعندما سئلوا عن سبب هذا السرور من جانبهم قالوا بأن هرتسل أبلغهم أنه لا يعتزم مراعاة التقاليد اليهودية. لماذا إذن هذا السرور ؟ قالوا: إذا لم تكن لدى هرتسل الرغبة فى مراعاة التقاليد اليهودية فإن هذا يعنى أنه لا يريد أن ينظر إليه أحد على أنه (المسيح المخلص) بل يريد أن ينظروا إليه على أساس أنه مجرد زعيم لحركة سياسية. وهدأت نفوس الحاخامات " [2].

وعلى الرغم من كل هذا، " كانت الصهيونية كأى أيديولوجية، تود أن تكتسب شرعية، وأن تجند الجماهير وراءها، ويمكن أن تستخدم ديباجة مفهرسة لديها. ومن هنا تستقل الصهيونية اليهودية لتضفى على نفسها صبغة دينية تحبب الجماهير فيها، وتظهر الصهيونية كما لو كانت امتداداً لليهودية وليست نقيضها. وهذا ما عبر عنه بعض المفكرين اليهود حين قال: إن الدين اليهودى يمكن أن يسهم فى بلورة الروح القومية للشعب اليهودى ... ومن هنا استخدم الصهاينة ديباجات دينية، فكان هرتسل يتحدث عن الاستيطان فى فلسطين باعتباره الخروج. وسميت الـهجرة إلى فلسطين بـ(عاليا)، وهو اصطلاح يفيد العلو والصعود لأسباب دينية ... وأصبح من الواجب على اليهودى ألا ينتظر المسيح، بل أصبح عليه أن يعود لفلسطين للإعداد لمقدمه " [3].

" وغيرت الصهيونية من المعنى العام لفكرة الخلاص، وحولته إلى حوار بين اليهودى والعالم بدلاً من كونه تعبيراً عن اللقاء الأخروى بين الإنسان اليهودى وربه، واضطرت الصهيونية إلى تحوير معنى المسيح المخلص الذى سيأتى فى نهاية الأيام لتنفيذ الخلاص. واضطرت الصهيونية إلى إعلان أن هذا المسيح المخلص ليس إنساناً أو شخصاً من نسل

---

(1) د. انيتا شابيرا: الصهيونية الدينية –مدخل تاريخى، ترجمة د. محمد محمود أبو غدير، مركز الدراسات الشرقية، ج القاهرة، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية، العدد (3)، مارس 1998، (ص 71).

(2) نفس المرجع، (ص72).

(3) د. عبد الوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، مرجع سابق، (117،116).

داوود لـه قوى خارقة للعادة، ولكنه فكرة أو رمز إلى حرية الإنسان اليهودى الفردية، وحريته القومية. كما أنه إشارة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية والاقتصادية لجموع اليهود ... فالمسيح المخلص إذن أصبح تشخيصاً لأبطال الحرية، أشبه بهؤلاء الذين حققوا مبادئ المساواة والحرية والقومية لشعوب أوروبا فى القرن التاسع عشر " [1].

وهكذا، " تلقفت الصهيونية الأفكار الدينية اليهودية، ووجدت فى مكوناتها أداة مهمة وفاعلة لشحن وتعبئة قطاعات مؤثرة من اليهود المتدينين، خدمة لأهدافها السياسية، وتحقيقاً لمطامعها الاستراتيجية، فليس هناك ما هو أكثر تأثيراً فى النفس المكلومة، ولا أشد وقعاً فى الأرواح المعذبة والمهانة على مدى قرون وقرون، من التلويح بالمهمة المقدسة الملقاة على عاتقهم، وبفكرة (الخلاص) و(العودة) إلى أرض (اللبن والعسل) والبلاد الموعودة التى وهبها الرب لـهم ... ولذا، فإن الصهيونية السياسية، وإزاء إدراكها لأهمية العنصر الدينى الكامن فى النفس اليهودية وحيويته، التى نمت فى الشتات على امتداد أحقاب طويلة، استخدمت خليطاً من العقيدة والبعد السياسى، واستغلته بذكاء وحنكة لعزل العناصر التى كانت تدعو إلى (الاندماج) من جهة، وإلى ضرب فكرة (الخلاص المسيحانى) النقية، التى كانت تربط بين هذه الفكرة وبين (التدخل الإلـهى) المباشر، كشرط لإنجازها، من جهة أخرى، فقد كان الزعيم الصهيونى بن جوريون يرى أنه (العقيدة اليهودية) هى (التعبير القومى) عن تطلع (الشعب اليهودى) لتحقيق غاياته الوطنية " [2].

" إذن كان بن جوريون يرى أن الدين اليهودى وظيفة، عليه القيام بتأديتها وكفى، وهو ما عبر عنه بوضوح عندما قال: (إن الدين هو وسيلة مواصلات فقط، ولذلك يجب أن نبقى فيها بعض الوقت، لا كل الوقت). ولم يكن يرتاح للمتدينين والحاخامات ؛ فكان يقول: (إن حياة اليهود لو تركت لحاخامات اليهود لظلوا حتى الآن كلاباً ضالة فى كل مكان، يضربهم الناس بالأقدام، ويحتمى اليهود من أقدام الأغلبية الساحقة لـهم فى كل مكان بأحلام العودة إلى أرض الميعاد والأجداد، وانتظار المسيح، الذى سيهبط عليهم من السماء، لينقذهم ويقوم لـهم بكل العمل، بينما هم يصلون الفجر والعشاء، ويبكون ليلاً ونهاراً " [3].

فبعد أن رفض الصهيونيون، فى البداية، استخدام الدين اليهودى ضمن المبادئ الأساسية للحركة الصهيونية خوفاً من سيطرة الحاخامات عليها والابتعاد عن العلمانية،

---

(1) د. محمد خليفة حسن: الصهيونية وعلاقتها بالتراث الدينى اليهودى، مرجع سابق، (ص22).

(2) أحمد بهاء الدين شعبان: حاخامات وجنرالات ـ الدين والدولة فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص28،29).

(3) د. رشاد عبدالله الشامى: القوى الدينية فى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، مرجع سابق(ص54).

حل القبول محل الرفض، وباتت النصوص المقرائية التى تتحدث عن الوعد الإلـهى بالأرض – أرض فلسطين – فى طليعة شعارات الصهيونية السياسية. وهكذا، انتبه القادة الصهيونيون إلى أهمية الدين كعنصر مهم فى خططهم السياسية.

وعلى سبيل المثال، " يستند النشيد الوطنى الإسرائيلى على الادعاءات الصهيونية المرتبطة بالأرض وبقدسية الشعب مرددا دعاوى الحق التاريخى والدينى فى الأرض، المستندة جميعها على تعبيرات توراتية منقاة بعناية ؛ لتغذية النشء على كل المستويات دينية كانت أم علمانية " [1].

فكرة الوعد الإلـهى بين العهد القديم والحاخامات اليهود:

يرجع ادعاء الصهيونية بالحق الدينى لليهود فى أرض فلسطين إلى فكرة الوعد الإلـهى لليهود بتخصيص هذه الأرض لـهم وفقاً لما جاء فى العهد القديم من وعود، " ويتلخص مضمون هذه الفكرة فى أن الآباء الإسرائيليين، ابتداء من آدم إلى نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف، قد تلقوا وعوداً إلـهية، وأن التاريخ الإسرائيلى اللاحق يعتبر المسرح الذى تحققت عليه هذه الوعود ... وقد تمت عملية ربط التاريخ اليهودى الحديث بالماضى من خلال التأكيد على تكرار هذه الوعود بتكرار العهد المعطى لموسى مع عدد من الآباء السابقين، ومن أهمهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب، بل العودة بفكرة العهد إلى نوح وآدم ؛ حتى يصبح التاريخ اليهودى وحدة واحدة لا تتجزأ " [2].

وتتضح فكرة الوعد الإلـهى مع إبراهيم فى سفر التكوين ؛ حيث يقول الرب لإبراهيم فى الإصحاح الثانى عشر من سفر التكوين: " وقال الرب لأبرام: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك " (التكوين إص 12: 1)، " وقال لـه أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ؛ ليعطيك هذه الأرض لترثها " (التكوين إص 15: 8)، " لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات " (التكوين، إص 15: 18).

ويتكرر هذا الوعد الإلـهى مع إبراهيم فى الإصحاح السابع عشر أيضا من هذا السفر، حيث كان إبراهيم يبلغ من العمر تسعا وتسعين عاما، فظهر لـه الرب، وأمره بالسير أمامه ؛ ليقيم معه عهداً، وقد أسماه الرب إبراهيم بعد أن كان يدعى أبرام، ثم وعده بأرض كنعان ملكاً أبدياً لـه " وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالـهم عهداً

([1])د. عبد الخالق عبدالله جبة: المضمون التوراتى والأيديولوجى للنشيد الوطنى الإسرائيلى (الأمل)، كلية الآداب بسوهاج، جامعة أسيوط، أغسطس 1992، (ص77).

([2])انظر: د. محمد خليفة حسن: دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1985، (ص56،55).

أبديا . لأكون إلـها لك ولنسلك من بعدك . وأعطى لك ولنسـلك من بعدك أرض غـربتك ملـكاً أبديا " (التكوين، إص 17 : 7ـ8).

ويتجدد العهد مع إسحاق فى الإصحاح السادس والعشرين من نفس السفر، " فظهر لـه الرب فى تلك الليلة، وقال أنا إلـه إبراهيم أبيك . لا تخف ؛ لأنى معك وأباركك وأكثر نسلك، من أجل إبراهيم عبدى " (التكوين إص 26 : 24). وفى الإصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين يظهر الرب ليعقوب وهو فى طريقه من فدان أرام ويباركه، وبعد أن أسماه الرب إسرائيل بدلا من يعقوب يجدد العهد معه ويمنحه أرض أجداده " والأرض التى أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها . ولنسلك من بعدك أعطى الأرض " (التكوين إص 35 : 12). ويتكرر العهد مع موسى، " وكلم الرب موسى فى عربات موآب على أردن أريحا قائلا كلم بنى إسرائيل وقل لـهم إنكم عابرون الأردن إلى أرض كنعان " (العدد 33 : 50ـ 51).

ولعلـه من المثير للدهشة هنا تكرار هذه الوعود، وكأنها محاولة من مدون هذه النصوص للتأكيد على هذا الوعد بتلك الأرض، " وربما نلاحظ، أيضا ذلك التقارب الشديد فى الأسلوب والألفاظ المستخدمة فى هذه العهود المتكررة على الرغم من المسافة الزمنية الفاصلة بين كل أب من هؤلاء الآباء . وهذا يدل على أن هذه الصيغ المتكررة للعهد إنما وضعت جميعها بيد كاتب واحد . ويظن بعض الدارسين أنه موسى، بينما يظن آخرون أنها من نتاج عصر النبوة فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد " [1].

كما أن تنفيذ هذا العهد مرتبط بعمليات قتل وتشريد وسفك للدماء، والمثير للشك هنا أن هذه العمليات تتم بأمر من الرب ذاته، فحين كلم الرب موسى – كما ذهب مدون العهد القديم – أمره بطرد سكان كنعان وقتلـهم، " فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة وتخربون جميع مرتفعاتهم، تملكون الأرض وتسكنون فيها، لأنى قد أعطيتكم الأرض لكى تملكوها " (العدد إص 33 : 52)، " فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها " (العدد إص 31 : 17). وتحدث سفر التثنية عن أسلوب تحقيق هذا الوعد الإلـهى الذى منحهم تلك الأرض من خلال الاستيلاء على المدن وسفك دماء أهل البلاد [2].

وفى حقيقة الأمر، تثير عملية ربط هذا الوعد بالقتل والطرد والإبادة نوعا من الشك أو الافتراء على الذات الإلـهية . وبالطبع، فإن صياغة مثل هذه الوعود وما تبعها من أوامر

(1) د. محمد خليفة حسن: دراسات فى تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة، مرجع سابق، (ص56).

(2) انظر: سفر التثنية: (الإصحاحات 20، 21 : 10ـ14، 23 : 10ـ16، 25 : 5).

بالقتل والطرد على هذا النحو يكون الـهدف منها واضحا، فمن غير المعقول أن يوحى الرب لنبى من أنبيائه بالقتل وسفك الدماء والتخريب. وتجدر الإشارة هنا ، إلى أن هذه القوانين الخاصة بأسلوب التعامل مع سكان هذه الأرض " يتسلمها القادة الإسرائيليون كمصدر وحى، وكشريعة مقدسة لاستئناف البعث الإسرائيلى فى فلسطين، على أساس أن كل جريمة تصبح شرعية وقانونية من أجل تحقيق وعد الرب " [1].

والمثير فى هذا التناقض، الذى وقع فيه مدون العهد القديم، أن التوراة تحدثت أيضا عن أرض فلسطين كأرض غربة بالنسبة إلى آل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ؛ حيث تحدثت عنهم بصفتهم غرباء ووافدين على فلسطين. كما أن التوراة تعترف بأن الرب نفسه نقض هذا العهد حين عاقب اليهود، " ففى سيناء عقد يهوه عهداً مع إسرائيل. وهذا العهد هو من فعل يهوه فهو اختار إسرائيل ودخل معها فى علاقة وطيدة من خلال العهد وتحت حمايته الخاصة، وقطع العهد من جانب الإسرائيليين لـه عواقبه التاريخية فى رأى الأنبياء والمؤرخين. فالإسرائيليون لم يعيشوا حسب شروط العهد ولم ينفذوا الوصايا، بل لم يقبلوا يهوه إلـها واحداً بل عبدوا آلـهة أخرى، ولـهـذا فقد قـرر يهوه عقابهم عن طريق تسليط الشعوب الأخرى عليهم " [2].

ومن ناحية أخرى، وفى محاولة لمضاهاة الأحداث التاريخية الحقيقية بما ورد فى العهد القديم، يقول سيد القمنى فى كتابه (إسرائيل– التوراة، التاريخ، التضليل): " إن التناقضات التى ينطوى عليها العهد القديم، يمكن أن تؤلف وحدها كتاباً قائماً بذاته، لا يقل حجما عن الكتاب المقدس ذاته، لو أردنا أن نجمعها فى مدون واحد، وهذا بحد ذاته كفيل بنزع الثقة عن التوراة وأخبارها منذ البدء، وحتى الأحداث التى ترويها، كوقائع حدثت فى القرن التاسع قبل الميلاد على الأقل، ففى التوراة مبالغات لا يمكن قبولـها إطلاقا، وهى أقرب إلى الأسطورة منها إلى التاريخ الصادق ... وعليه فإن النص التوراتى من وجهة نظرنا ليس أكثر من وثيقة أسطورية " [3].

وفى العصر الحديث، اتخذ الحاخامات اليهود من هذه الوعود ذريعة من أجل شحذ همم الإسرائيليين نحو التمسك بهذه الأرض التى وعدهم الرب بها حسب ادعائهم، واتخذت فتاواهم منحنى خطر تجاه التعامل مع الفلسطينيين أصحاب هذه الأرض بكل قسوة وعنف، بحيث أصبح القتل والـهدم والتخريب، وكأنه طقس من الطقوس البدائية التى

(1) د. رشاد عبالله الشامى: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص170).
(2) د. محمد خليفة حسن: التفكير التاريخى والحضارى عند الشعوب العربية (السامية)القديمة، كلية الآداب ج القاهرة، 2000، (ص204).
(3) سيد القمنى: إسرائيل- التوراة. التاريخ. التضليل، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، قبرص، 1994، (ص 36، 40).

عادت لتقدم قربانا للرب طمعا فى إرضائه. وعلى سبيل المثال " أعلن الحاخام العسكرى لإسرائيل موشيه جورن أن الحروب الثلاثة التى جرت بين إسرائيل والعرب خلال السنوات 1948، 1956، 1967، هى فى منزلة (الحرب المقدسة)، فأولـها لتحرير أرض إسرائيل، والثانية لاستمرار دولة إسرائيل، أما الثالثة فقد كانت لتحقيق نبوءات أنبياء إسرائيل " [1].

وثمة نظرة عابرة تجاه دور الحاخامات داخل المجتمع الإسرائيلى، تكشف لنا عن الرعب الذى يتأجج فى قلوب اليهود من هؤلاء الحاخامات الذين تعد فتاواهم أمرا واجب التنفيذ دون أدنى مناقشة أو اعتراض. وربما يبين لنا حادث مقتل رئيس الوزراء السابق إسحاق رابين، مدى خطورة الدور الذى يلعبه الحاخامات اليهود، حيث كشفت التحقيقات التى أجريت مع " ييجال عامير " قاتل رابين، أنه قتل رئيس الوزراء بناء على فتوى من أحد الحاخامات أبيح فيها إهدار دم رابين ؛ لأنه كان بصدد التخلى عن الأرض الموعودة بموجب اتفاق مع الفلسطينيين.

وفى حقيقة الأمر، يلعب الحاخامات دوراً مهماً ورئيسياً فى تشكيل الوعى الدينى والسياسى كممثلين للديانة اليهودية بطابعها الكهنوتى المغلق، لاسيما أن من أهم وصاياها (اتخذ لنفسك حاخاماً). وهكذا ، يفرض النص الدينى على اليهودى أن ينتمى لحاخام معين ويتبنى آراءه ويعمل على تنفيذ الفتاوى التى تصدر عنه، ويكون من مريديه واتباعه الدائمين الذين يترددون على دروسه وخطبه اليومية أو الأسبوعية.

وهكذا أيضاً، أقام الحاخامات دولة داخل دولة –إن صح التعبير – وتغلغلوا فى شتى نواحى الحياة وفرضوا كلمتهم التى يخشاها اعتى المسئولين الإسرائيليين بما فيهم رئيس الوزراء. ومن هنا تبقى الفتاوى الخاصة بـ(أرض الميعاد) مسألة غاية فى الخطورة يضعها أى رئيس وزراء إسرائيلى فى الاعتبار وهو ذاهب إلى مائدة المفاوضات، فما زال شبح مصرع رابين يطارد المسئولين الإسرائيليين المعنيين بالمفاوضات مع العرب، وبخاصة أن حاخامات اليهود ينظرون إلى من يعيد (للأعداء) أراضى تم تحريرها يعد خائناً يجب قتلـه. ودائماً ما تتسم الانتخـابات الإسرائيلية بمحاولات لمغازلة الحاخامات وأحزابهم الدينية. فالحاخامات فى كل مكان، فى المحكمة الشرعية، وفى دور العبادة، وفى الجيش، وفى الكنيست، يرفضون ويقررون ما يشاءون. إنهم يلعبون دوراً بارزاً فى تشكيل السياسات التى تتبناها الحكومات الإسرائيلية. ويذهب بعض المحللين إلى أن عدد اليهود المتدينين فى تزايد مستمر، وذلك لنجاح الحاخامات فى ضم عشرات اليهود المأزومين نفسياً واجتماعياً

(1)د. رشاد عبالله الشامى: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص173).

إلى معسكرهم الدينى، ولدعواهم بزيادة النسل ؛ حتى وصل عدد بعض الأسر اليهودية المتدينة إلى عشرة أو ثلاثة عشر فرداً.

لقد شكلت فتاوى هؤلاء الحاخامات وجدان النفسية الإسرائيلية، وتعاظمت، إلى أن تخطت حدود المعقول، حين تحدثت عن فتاوى الدم والقتل فى سبيل المحافظة على (الأرض المقدسة) أو (أرض الميعاد) التى وعـدهم الرب بها، والمحافظة عليها تعنى إقامة وصايا الرب وإرضاءه، حتى وإن كان ذلك عن طريق قتل (الأغيار) واحتلال ديارهم وطردهم، معتمدين فى ذلك على بعض النصوص التوراتية التى يأمر فيها الرب بقتل النساء والأطفال وتخريب المرتفعات، كما جاء فى النصوص المقدسة (سفر العدد، 31 : 17).

وفى إطار ادعاء اليهود بالحق الدينى فى أرض فلسطين، الذى تعتمد عليه الصهيونية فى نظرياتها، مثلت فتاوى الحاخامات اليهود خطرا كبيراً على مستقبل الصراع العربى الإسرائيلى من ناحية، والصراع الفلسطينى الإسرائيلى من ناحية أخرى. وثمة نظرة أخرى على فتاوى الحاخامات اليهود الخاصة بالأرض، تكشف لنا عن مدى خطورة هذه الفتاوى، لاسيما أنهم يستندون فى فتاواهم إلى ما ورد على لسان الرب، الذى من المفترض أن تكون كلماته موضع التنفيذ الدائم، فهذه الأرض هى أرض اليهود – حسبما يذهبون – وهى أرض مقدسة وعدهم الرب بها ولا يمكن التفريط فيها تحت أى مسمى. وعلى سبيل المثال، يضع الحاخام الإسرائيلى مئير كاهانا شرعية دولة إسرائيل موضع السؤال، " فهى فى نظره مستندة إلى أمر الـهى، حيث يقول: (لو لم يكن الرب قد أمرنا بالعيش فى هذه البلاد، فما الذى أفعلـه هنا. إن هذه البلاد كارثة حقيقية سواء أكان ذلك على الصعيد الجغرافى أم المادى. . أنا لا أعيش هنا إلا لأن هناك وصية مقدسة بذلك) " [1].

ويذهب مئير كاهانا بتطرفه الدينى إلى ضرورة تطهير هذه (الأرض المقدسة) من أى وجود غير يهودى، " وهو يرى أن السبب فى أن يكون المرء يهودياً، والسبب الذى يجعلـه يعيش فى إسرائيل لـهما أصل مشترك هو الأمر الإلـهى. وعليه فإن إقامة دولة يهودية ـ وهى وصية إلـهية – وسيلة الحصول على ثقافة يهودية حقة، ولابد لذلك من تطهيرها من أى وجود غير يهودى " ([2]).

ويذهب " إسحاق نسيم " حاخام إسرائيل الأكبر السابق، إلى أن " أرض إسرائيل هى الميراث المقدس لدى كل يهودى، ولا تملك أية سلطة دنيوية أو دينية القدرة على انقاض

([1])رافائيل ميرجى، فيليب سيمونو: مئير كاهانا، الحاخام الذى يخيف اليهود، عرض: علبة البرشومى، سلسلة كتاب قضايا فكرية، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، الكتاب السادس، أبريل 1988، (ص266).
([2]) نفس المرجع.

هذا الدعاء أو التقليل من شأنه " [1]. كما أن بعض الحاخامات لا يعترفون بوجود أراض عربية، ويستندون فى ذلك إلى ما ورد فى التوراة على أنها تراث الآباء إسحق ويعقوب، حيث يقول الحاخام تسفى يهودا كوك الابن: " إن هذه البلاد لنا، ولا توجد هنا أية مناطق عربية أو أراض عربية، بل أراض إسرائيل.. تراث الآباء الخالد، وهى – فى جميع حدودها الواردة فى التوراة – تابعة للحكم الإسرائيلى " [□].

" ويمتد هذا التعصب الدينى إلى التلاعب بالسياسة على المستويين الخارجى والمحلى، كما هو واضح فى حالة (جوش أمونيم)[•]، تلك الجماعة الصغيرة التى تدعو إلى ضم الأراضى المحتلة ... وكما هو واضح فى كلمات الحاخام موشى بن تسيون، لقد أدى به تفسيره الدينى الصـهيونى للتلـمود إلى العودة للقضاء على الفلسطينيين واستعمار كل أرض إسرائيل التاريخية " [3].

وينظر الحاخامات اليهود إلى الاتفاقيات المبرمة مع الفلسطينيين على أنها ملغاة ولا يمكن الاعتراف بها ؛ لأنها تعطى أراضى الرب للغير، حيث يقول الحاخام شلومو افنيرى: "السلام فى حد ذاته أمر محمود، لكن هذا لا يعنى تسليم أراضينا المقدسة للأعداء، أبناء إسماعيل، وتقضى الشريعة اليهودية بأن ما يحرره ملك إسرائيل من أراض لا يمكن التخلى عنها البتة، واليوم تقوم دولة إسرائيل مقام الملك، ومن ثم فالأرض التى يفرط فيها رئيس وزراء إسرائيل يجب استعادتها، والقصاص منه بتهمة الخيانة، أما الاتفاقية فهى باطلة، حيث سلم خائن من اليهود أراضى الرب للعرب، وعليه لانلتزم بمثل هذه الاتفاقيات التى تخالف نصوص الدين اليهودى " [4].

ويتضح موقف الشريعة اليهودية من إعادة الأراضى المحتلة إلى الفلسطينيين فى كلمات الحاخام "يوسف النكفاه" الذى يتعجب من إعادة تلك الأراضى التى تعنى إعادتها مخالفة للشريعة اليهودية، ويتساءل: " إننى لا أفهم من ذلك سوى أن يعيد لنا الجوييم (الأغيار) أرض إسرائيل من النيل إلى الفرات، أو على الأقل من الفرات حتى وادى العريش، وبالطبع يا حبذا لو حتى وادى النيل. وتسليم أرضنا للعرب حرام حرام حرام أن نتخلى

(□) أحمد بهاء الدين شعبان: حاخامات وجنرالات، مرجع سابق، (ص15).
(□) نفس المرجع (ص33).
(•) جوش إمونيم: كتلة من رجال الاستيطان اليهودى من المتدينين، نشأت فى القدس عام 1967، ومعظمهم من مدرسة الرب كوك الذين يحافظون على إخلاصهم لأرض إسرائيل، ويؤيدون انتهاج خط سياسى أكثر حزماً بالنسبة لشئون أرض إسرائيل وينتمى معظم أعضائها للحزب الدينى القومى (المفدال)، ويرفضون الانسحاب من الأراضى العربية المحتلة.
(□)د. رشاد عبدالله الشامى: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص174).
(□) أنظر (web site: http:\\www.yeshiva.org.il\2002).

عما وهبنـا الرب إياه. ويؤكد ذلك ما جاء فى كتب الحاخام موشيه بن نحمان، وكتاب (نور الحياة) الذى تؤكد كل فقراته أن الرب وعد إبراهيم وإسحق ويعقوب بأرض إسرائيل. وإننى أتبنى مبدأ (الأرض مقابل الأرض)، بعبارة أخرى فى إسرائيل ملايين اليهود الذين تركوا بيوتهم فى مصر واليمن والمغرب وتونس وبغداد والـهند، فليذهب الفلسطينيون إلى هناك وسيجدون مأوى بكل تأكيد. وقد ورد فى سفر العدد الإصحاح الثالث عشر: (ورثتم الأرض وأقمتم فيها، وقد منحتها لكم لتعمروها) "[1].

وهكذا، تبدو ملامح هذه الفتاوى الحاخامية، التى تبين لنا مدى عبادة (الأرض المقدسة) لدى هؤلاء الحاخامات وأتباعهم، وقد اتخذوا من نصوص الكتاب المقدس والتلمود حجة ليملوا على اليهود حتمية العمل بهذه الفتاوى، فالدفاع عن هذه الأرض هو واجب دينى مقدس لا يمكن التخلى عنه، بل محاربة الذين ينقضون هذا الواجب، وإن كانوا يهوداً، هو أمر مقدس حتى وإن كان هناك اضطرار لقتلـهم. وقد وصف أحد الحاخامات الصراع العربى الإسرائيلى بأنه حرب دينية مقدسة تستلزم الدفاع عن الأرض المقدسة التى وهبها الرب لـهم، حسب ادعائهم، وقد آثرنا أن نأتى بهذه الفتاوى بصرف النظر عن الانتماءات الحزبية أو السياسية لـهؤلاء الحاخامات وموقعهم على خريطة الأحزاب والقوى الدينية فى إسرائيل، فما يهمنا فى المقام الأول هو موقف الدين اليهودى والحاخامات اليهود من النصوص التوراتية التى تحدثت عن الأرض، وكيف طوعوها لخدمة أهدافهم وأغراضهم السياسية التى تخدم اليمين الصهيونى المتطرف فى إسرائيل، وكيف تم توظيف هذه النصوص للاستماتة على هذه الأرض من قبل الصهيونية التى اعتمدت فى الكثير من نظرياتها على ادعاء الحق الدينى لليهود فى فلسطين، وكرست كل جهودها من أجل استقطاب حاخامات اليهود للتأكيد على هذا الحق الدينى المزعوم، مستغلة نفوذ هؤلاء الحاخامات وأهميتهم بالنسبة لقطاعات لا بأس بها من المجتمع الإسرائيلى. ولنا أن نتصور مدى النشـوة الدينية التى عاشها حاخامات اليهود بعد حرب 1967، التى احتلت إسرائيل على أثرها أجزاء كبيرة من الأراضى العربية، فقد أرجعوا هذا الانتصار إلى (معجزة إلـهية) ونظروا إلى هذه الأراضى على أنها (أراض محررة) من يفرط فيها خائن وجب قتلـه.

وبالـها من إشكالية معقدة اتسمت بها العلاقة بين الدين اليهودى والصهيونية من ناحية، والدين والدولة من ناحية أخرى. ولكنها تبدو فى غالب الأحيان واضحة حينما نتدارك الاستدعاء المستمر من القيادات الصهيونية للتراث الدينى التوراتى، باعتباره وسيلة

(1) أنظر (web site: http:\\www.yeshiva.org.il\2002).

مجربة وناجحة، يسهل من خلالـها خدمة الأهداف السياسية تجاه العديد من القضايا الشائكة فى مسألة الصراع العربى الإسرائيلى.

وتبدو هذه الإشكالية غير معقدة أيضا حينما نأخذ " دافيد بن جوريون " مؤسس دولة إسرائيل مثالا ؛ " فلم يكن بن جوريون ملحداً، بل كان يؤمن باللـه على طريقته الخاصة. وقد سئل مرة عما إذا كان يؤمن باللـه فأجاب: (السؤال هو من اللـه ؟)... وبالرغم من هذه النظرة السلبية إلى الدين، فقد كان بن جوريون يدرك أهمية استغلال الدين فى سبيل تدعيم الفكرة الصهيونية، واجتذاب المهاجرين إلى فلسطين، فأعلن ذات مرة: (إن خلود إسرائيل يتميز باثنتين: دولة إسرائيل والتوراة) "[1].

اتجاهات نقد الصهيونية فى الرواية:

تشير أحداث رواية (عيسو) والحبكة الدرامية بها إلى أن شاليف اعتمد فى كتابته لـهذه الرواية على الخلفية التوراتية لقصة الوعد الإلـهى بالأرض التى منحها الرب ليعقوب، والخصومة والنزاع بين عيسو ويعقوب، واتخاذها رمزاً للصراع الدائر بين الفلسطينيين والإسرائيليين فى العصر الحديث. وبدا أمامنا المثلث التوراتى (عيسو، يعقوب، ليئة) فى مقابل المثلث الروائى (عيسو، يعقوب، ليئة)، والذى يقابلـهما على أرض الواقع مثلث آخر يتمثل فى المثلث السياسى (الفلسطينيون، اليهود، الأرض)، لاسيما أن المرأة قد لعبت دوراً مهما فى هذه الرواية تجاه مسألة الصراع، فهى شخصية تمثل لنا أرض فلسطين فى مقابل اثنين يدعيان ملكيتهما لـها. وهو نفس الدور الذى لعبته المــرأة فى رواية " شاليف " السابقة (رواية روسية).

ويقول يوسف أورن فى معرض تعليقه على هذه الرواية: " هناك توءمان يتنافسان فيما بينهما على امرأة واحدة. وعلى هــذا، فإن المواجـهة بين المتنافسين على حب امرأة واحدة، هى مواجهة متوقعة. وهنا نصل إلى الحكمة الموضوعة فى بؤرة هذه القصة لتلك الرواية، حيث يبرز أمامنا التناظر السياسى لـها: وهو الصراع على أرض فلسطين "[2].

وينعكس موقف شاليف من الصهيونية، مرة أخرى فى هذه الرواية، من خلال لـهجته الحادة فى التعامل مع فرضياتها التى ينظر إليها على أنها مجموعة من الأساطير، ولعل جرأة شاليف فى هذه الرواية، كانت تكمن فى إشاراته المباشرة إلى الصهيونية، فلم يجهد القارئ كثيراً فى الربط بين أحداث الرواية والواقع الفعلى التى تعيش فيه إسرائيل ثمرة الأيديولوجية

---

(1) د. رشاد عبالله الشامى: القوى الدينية فى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، مرجع سابق، (ص53).

(2) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص58).

الصهيونية، حيث يقوم الأمير " أنطوان " برحلته إلى القدس عام 1898، بعد عام واحد من انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل، ويشهد زواج " سارة " من ابن أسرة " ليفى " التى تعد من أقدم الأسر اليهودية فى القدس، وقد أجبرت " سارة " زوجها " أبراهام " على قطع شجرة الأنساب القدسية، وفى عام 1927 تجعلـه يسافر هو وتوءميهما بعربة البطريرك إلى القرية. ويعلق " يوسف أورن " على تلك التواريخ الواردة فى الرواية بقولـه: " إن إقحام تاريخ بداية قصة الأسرة الذى يقترب من تاريخ نشأة الصهيونية لم يكن أمراً عفوياً أو غير مقصود. لقد تقرر فى المؤتمر الصهيونى الأول هجر الخلاص الدينى المسيحانى من أجل الخلاص العلمانى الدنيوى ... ويرمز ترك القدس إلى هذا التحول ... لاسيما أن القرية هى ثمرة تمجيد الصهيونية، والقدس كانت رمزاً للخلاص الدينى المسيحانى حتى نشأة الصهيونية "[1].

كما أن فوز " يعقوب " بالمخبز و" ليئة " حدث عام 1948، عام قيام دولة إسرائيل. ففى هذا العام حسمت الجولة الأولى من الصراع لصالح " يعقوب "، فقد أثمرت جهود الصهيونية عن تحقق حلمها فى إقامة كيان وطنى لليهود على أرض فلسطين.

ويمكن القول أيضاً ؛ إن شاليف يواصل فى هذه الرواية ما انتهى إليـــه فى روايته السابقة (رواية روسية) حول نقده للصهيونية فى اعتمادها على الأساطير الدينية والتاريخية واتخاذها كحل للصراع الدائر بين الفلسطينيين واليهود، فإذا كان قد فند ادعاء الحق التاريخى لليهود فى فلسطين فى (رواية روسية)، فإنه يفند هنا ادعاء الحق الدينى أيضاً، فى تأكيد شديد اللـهجة على رفضه لـهذه الأساطير التى فطمت الصهيونية الأجيال اليهودية اللاحقة عليها. وهو بذلك يعبر عن فشل الصهيونية، ويحذر اليمين الصهيونى المتطرف من الاعتماد على مثل هذه الأساطير ؛ لأن إبقاء التركة فى يد أحد الأخوين كحل سهل للصراع لن يبقى طويلاً، ويؤكد على أن الجولة الثانية فى الصراع سوف تكون لصالح الفلسطينيين (عيسو). وسنعرض هنا لأبرز النقاط التى تناولـها شاليف فى معرض نقده للصهيونية فى هذه الرواية والتى تكاد تنصب كلـها فى:

اعتماد الصهيونية على أسطورة المقرا فى حل الصراع:

لم يجهد شاليف القارئ كثيراً فى محاولة الكشف عن هدفه فى هذه الرواية، فقد كان صريحاً ومباشراً منذ عنوان الرواية فى أن قضيته الأولى عبر أحداث الرواية هى أسطورة المقرا الشهيرة (قصة عيسو ويعقوب والوعد الإلـهى ليعقوب بالأرض) التى اتخذتها الصهيونية كمبدأ لحل الصراع بين الفلسطينيين واليهود على أرض الواقع.

(1) نفس المرجع، (ص71).

ففى القصة الأولى (الدوق أنطون والخادمة زوجا)، يقضى الدوق ليلة كاملة مع العاهرات بالقدس، يعود بعدها ليجد أنفه وقد وشم عليها بكتابة ما. وعندما ينزع الأطباء هذه الكتابة يتضح أنها منمنمات خاصة، تتضمن الفقرات الاثنتى عشرة الأولى من الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين. وتحكى هذه الفقرات عن إبراهيم وقومه، وأسلوبه فى حل نزاع الميراث بين ابنيه إسحق وإسماعيل ؛ فقد " أعطى إبراهيم إسحاق كل ما كان لـه " (سفر التكوين، إص 25 : 5).

" فحص جلد أنف الدوق، وتبين أن هذا الوشم لم يكن إلا اقتباسا صغيرا للغاية من الفقرات الاثنتى عشرة الأولى من الإصحاح الخامس والعشرين لسفر التكوين ومكتوبة بالعبرية "[1].

وفى القصة الثانية (إلياهو سالومو ومريم إشكنازى) يحدثنا شاليف عن "سالومو" والد "إلياهـو" الذى برع فى كتابة إصحاحات العهد القديم الخاصـة بحـل النزاع بين كل من "عيسو" و"يعقوب" ؛ فهو يكتب فقرات العهد القديم بدقة بالغة وبصورة مصغرة للغاية :

" بعد ذلك اقتلع شعرة رقيقة من مؤخرة رأس الطفل ... وألصقهـا فى ثقب بطرف ريشته، ثم دلى لسانه وكتب الفقرات الخمس الأولى من الإصحاح على ظافر إصبعه "[2].

" لقد تخصص سالومو فى هذا المجال، وهو الكتابة الدقيقة، منذ أن كان فى التاسعة من عمره. وقد ظهرت خبرته الرائعة فى كتابة بعض فقرات المقرا فى الجزء الأعلى من إصبعه الذى قطع بأمر حاكم تركى. وفى المقدمة التى تتحدث عن قائمة لنسل (عيسو) يشرح لنا الإصحاح الخامس والثلاثون كيف نحل مرة أخرى بالتاريخ النزاع بين الأخوة حول الميراث. ويحكى لنا هذا الإصحاح عن عيسو الذى ترك (الأرض التى كان يقطن بها آباؤه فى أرض كنعان) وسكن (فى جبل مدينة آدوم)، وقد اضطر لذلك بسبب أخيه يعقوب وإرثهم، وذلك لأن الأرض، أرض آباءهم، لم تستطع تحملـهما معاً بسبب نزاعهما "[3].

وربما يشير شاليف هنا إلى فكرة الترانسفير فى العهد القديم التى تحل النزاع بين الأخوين حول الميراث من خلال رحيل أحد الأخوين، وهى نفس الفكرة التى تنادى بها بعض دوائر اليمين الصهيونى المتطرف فى إسرائيل كحل لمسألة الصراع الدائر بين الفلسطينيين والإسرائيليين على الأرض. وتأتى إشارة شاليف هنا كمقدمة لرفضه لـهذا الحل المقرائى الذى تبنته الصهيونية فى برامجها السياسية.

([1])مئير شاليف : " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص24).
([2])مئير شاليف : " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص223).
([3])يوسف أورن : " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص63).

ويعلق الناقد الإسرائيلى "يوسف أورن" على هذه الفكرة ومقصد شاليف من التعرض لـها بقولـه: " لقد تبلورت فكرة الترانسفير من خلال مثل هذه النماذج، ولأكثر من مرة يعرضها الكاتب المقرائى كحل معقول لمثل هذه النزاعات فى تاريخ فلسطين ... إن فكرة الترانسفير هى فكرة سياسية تظهر فى الواقع كأحد الاقتراحات التى تجىء لحل النزاع العربى الإسرائيلى. وهناك بعض التيارات السياسية فى المجتمع الإسرائيلى ترفض هذه الفكرة ؛ لأنها تجعل الميراث كلـه فى يد أحد الأخوين، وتنزع الجزء الثانى تماماً من الآخر. وتقترح بعض التيارات السياسية حل مختلف لـهذا الصراع حول الأرض، وهو تقسيم الأرض بين الوريثين. ويأتى شاليف بهذا التنويه الخاص بالحلول المقرائية لنزاع الميراث بين الأخوين فى قصة (عيسو) لكى يعضد رفضه لمثل هذه الحلول " [1].

"ومن المعروف أيضاً، أن فكرة الترحيل الجماعى للفلسطينيين التى عرفت باسم(الترانسفير) وأصبحت مصطلحاً تردد كثيراً فى الثمانينيات، من القرن العشرين، من جانب دوائر يمينية متطرفة، هى الفكرة التى أطلقها ويركز عليها رحبعام زئيفى أحد أعضاء حزب(موليدت) اليمينى المتطـرف، حيث طالب بترحيل الفلسطـينيين إلى الدول العربية فى(شاحنات) على حد تعبيره، بل وذهب إلى أبعد من هذا بالمطالبة أيضاً بترحيل العرب الفلســـطينيين الذين يعيشون فى دولة إسرائيل ويعتبرون فى عداد مواطنيها" [2].

كما أن الأسماء الواردة فى أحداث الرواية تؤكد لنا على هدف شاليف فى دحض أسطورة المقرا ؛ فهو يأتى بالأسماء التوراتية ويسقطها على القصة الروائية. ولدينا فى الـــــرواية " أبراهام " وزوجته "سارة"، و"يعقوب" وزوجته "ليئة"، و "عيسو" بطل الرواية، وهى نفس أسماء القصة التوراتية. كما أننا نلاحظ هنا شخصيات سياسية فى الرواية يرمز إليها شاليف على أرض الواقع، مثل "ميخائيل" (يتسحاق شامير)، و "بنيامين"، و "شمعون" (بيرتس) وعلى هذا الأساس، يمكن القول، إن شاليف يمزج بين الأسماء التوراتية والأسماء السياسية فى " إشارة إلى تلك القوى السياسية الصهيونية اليمينية المتطرفة التى تتخذ من النص التوراتى حل قضية الصراع بين الإسرائيليين والفلسطينيين على الأرض، أنموذجاً تتبناه وتدعو لـه، وهو ما عرف باسم الترانسـفير أو الترحـيل الذى يضع الميـراث كـلـه فى يد أحد الأخوين" [3].

([1])نفس المرجع، (ص63).

([2])د. عبد الوهاب محمود وهب اللـه: الرواية السياسية فى الأدب العبرى المعاصر، دراسة فى رواية (عيسو)لئير شاليف، مجلة رسالة المشرق، مركز الدراسات الشرقية، ج القاهرة، المجلد الرابع، الأعداد (2:4)، 1995، (125).

([3])د. رشاد عبداللـه الشامى: أدب ما بعد الصهيونية، مرجع سابق، (ص 38).

ويمكننا أن نعرض لأسطورة المقرا التى تبنتها الصهيونية، واتخذتها كمبدأ لحل النزاع بين الفلسطينيين والإسرائيليين على الأرض عبر أحداث الرواية، حسب رؤية شاليف، من خلال هاتين الجولتين:

(1) الجولة الأولى من الصراع (موقف الصهيونية من الأسطورة التوراتية):

سعت الصهيونية، منذ البدايات الأولى لتكوينها كحركة، إلى تبنى كل ما يعضد موقفها ويحقق أهدافها ضد الطرف الآخر فى الصراع. ولم تكن فى حل من مداعبة أحاسيس اليهود الدينية والعقائدية فى إطار ما يسمى بالحماس الدينى تجاه أرض فلسطين كأرض الميعاد. وعند اصطدامها بالواقع والمواجهة مع الفلسطينيين على الأرض، اتخذت من الأساطير الدينية ذريعة وحجة لتعضيد موقف اليهود وإثارتهم، ورفعت شعار (عيسو يكره يعقوب). كما أنها كررت على مسامع اليهود الوعد الإلـهى بالأرض (أرض كنعان) "لترث أرض غربتك التى أعطاها اللـه لإبراهيم" (تكوين28:4)، وأكدت فى أسطورتها على أن فلسطين هى ملك لليهود طبقاً للوعد الإلـهى المتكرر مع إبراهيم وإسحق ويعقوب فى العهد القديم. ومن هنا كان رحيل أحد الأخوين هو أمر حتمى وضرورى لحل هذا الصراع بكل سهولة ويسر ؛ ليفوز " يعقوب " بالجولة الأولى فى الصراع. وهو مبدأ اتخذته الصهيـــونية ولم تحد عنه.

وقد تعرض شاليف لـهذه الأسطـــورة الدينية فى روايته (عيسو) من خـــلال أسرة " أبراهام ليفى " وزوجته "سارة "، وهى أسرة خبازين، تصارع ابناهما " عيسو " ويعقوب " على وراثة المخبز، وامتد الصراع إلى " ليئة " تلك الفتاة التى تزوجها "يعقوب " على الرغم من أنها كانت مرتبطة بقصة حب مع أخيه " عيسو ".

وأخذ الصراع فى الرواية منحنى ساير منحنى الأسطورة التوراتية، كمحاولة من شاليف للتأكيد على أنه إذا كانت الجولة الأولى فى الصراع قد حسمت لصالح " يعقوب "، فعلينا أن ننتظر نتيجة الجولة الثانية.

وقد لعبت العلاقات الأسرية بين أفراد أسرة " ليفى " دوراً فاعلاً فى حسم نتيجة الجولة الأولى من الصـراع، التى يمكن من خلالـها أن نتبين كيف فاز "يعقوب" بالمخبز والزوجة فى آن واحد:

(ا) العلاقة بين "عيسو" وأمه "سارة":

لعبت الملامح الشخصية لـ " سارة " الأم دوراً مهما فى صوغ العلاقة بين ابنها "عيسو" و" يعقوب ". فهى شخصية مستبدة أجبرت الأسرة كلـها على ترك القدس، ودائماً ما تتسم العلاقة بينها وبين زوجها أبراهام بالشدة والقســـــوة. فيصفها " عيسـو " القاص بالشخصية المعقدة التى يصعب على أحد فهمها:

" كانت أبسط امرأة وأعقد شخصية عرفتها. فالنساء كان يجدن صعوبة دائماً فى فهمـها، أما الرجال فقد فهموها كل بطريقته الخاصة "(1).

وكان اليأس والإحباط يتسلل إلى نفسها بكل سهولة ويسر، فقد فشلت فى تعلم القراءة والكتابة:

" لقد طلبت منى أن أعلمها القراءة والكتابة ولكنها لم تتمكن من ذلك، فانهار أملـها وتحطم ".

وربما انعكست شخصية الأم المعقدة فى التعامل مع ابنيها " عيسو " و " يعقوب " فقد كانت تهتم " بيعقوب " دائماً، وتداعبه حتى وهو شاب كبير:

" أجلست أمى يعقوب على الكرسى، وركعت على ركبتيها، وفتحت أزرار قميصه، وخلعت نعليه ... وبعد ذلك قامت وأسندت جبهته على بطنها وخلعت قميصه ... وفكت حزام سروالـه ... وأخذت تحرك يديها على كتفيه وظهره وبطنه وركبتيه، لتفحصه من رأسه حتى إخمص قدميه، باحثة عن جروح أو إصابات "(2).

وفى مقابل اهتمامها بيعقوب فتاها المدلل، كانت تسب " عيسو " وتلعنه وتتوعده:

" كانت أمى تسبني طيلة حياتها، وتدعونى (الخائن) "(3).

لم يشر شاليف فى هذه الرواية إلى سبب هذه العلاقة المتوترة التى جمعت بين "عيسو" وأمه، وربما كان التوتر هنا فى هذه العلاقة وحب " سارة " لابنها " يعقوب" ضرورة فى الحبكة الروائية كتمهيد لفوز " يعقوب " بالجولة الأولى فى الصراع. كما أن بقاء هذه العلاقة على هذا الحال، يعد مقدمة لدور المرأة المغاير فى الجولة الثانية من الصراع الذى مثلته " رومى " ابنة " يعقوب " كما سنتبين فيما بعد.

لقد كان " عيسو" يحلم بأمه، وهو فى أمريكا، تحدثه فى التليفون، وتؤكد لـه أن سبابها قائم:

" فى حلمى كان الـهاتف يدق. فإذا بى أجدها تنادينى باسمى مرتين عند رفع سماعة الـهاتف كما لو أنها تؤكد لى على أن لعنتها ما زالت قائمة "(4).

ولم ينس " عيسو " طوال حياته سباب أمه لـه، فدائماً ما يتذكر أنها كانت تصفه بالكذاب والشرير:

كانت تقول لى " أيها الشرير الكذاب "(5).

---

(1) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص191).
(2) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق نفس المرجع، (ص264).
(3) نفس المرجع، (ص96).
(4) نفس المرجع، (ص311).

ولم تكتف " سارة " بالسباب فقط بل إنها توعدت " عيسو " وهددته بأنه لن يكون لـه زوجة أو طفل أو أرض :

" لن تكون لك أسرة. ولن تكون لك زوجة. ولن يكون لك ولد. ولن تكون لك أرض "(1).

ومن الملاحظ أن هذه الكلمات التى ألقتها " سارة " على مسامع ابنها " عيسو " تتفق مع ما ورد فى الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين، حينما اكتشف " عيسو " سرقة الباكورة منه فذهب إلى أبيه لكى يباركه هو الآخر، فأجابه : " بلا دسم الأرض يكون مسكنك. وبلا ندى الســماء من فوق. وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد " (التكوين 27 : 39ـ40).

وبالفعل، قررت " سارة " أن تزوج " يعقوب " لمحبوبة أخيه " عيسو " :

" ليئة سوف تكون ليعقوب "(2).

وكان لسارة دورها الكبير فى ضياع " ليئة " من "عيسو "، ولم يكن هذا فحسب، بل إنها عزمت على أن يكون المخبز أيضاً من نصيب " يعقوب "، حتى إننا نجده يطلب منها الكف عن هذا طوال الزمن :

" إننى لا أريد ليئة، ولا أريد المخبز، وأرجو أن تكفى عن قول هذا لى طوال الزمن "(3).

وتمضى أحداث الرواية، ويتزوج "يعقوب " من " ليئة " حسب رغبة أمه "سارة " لتحقق نبوءتها ويفوز "يعقوب " بالزوجة، ويحرم منها "عيسو" :

" كانت أمى متأثرة للغاية بزواج يعقوب وليئة "(4).

وهكذا، لم يكن أمام " عيسو " بعد ضياع محبوبته والمخبز سوى الرحيل، فقد قرر السفر إلى أمريكا ليعمل هناك، وساعده فى ذلك أمين المكتبة الذى كان يتردد عليه دائما فى مكتبته. وفى الميناء كان يصاحبه الجميع فيما عدا أمه "سارة " ويصف وقتها أخاه "يعقوب " بالخائن هو وأمه :

" سوف أحكى لك فقط أن أمى لم تأت لمرافقتى إلى الميناء ... أما ذلك (الخائن) حبيبها فقد أطل علىّ من وراء النافذة "(5).

---

(1)نفس المرجع، ، (ص311).
(2)نفس المرجع، (ص311).
(3)مئير شاليف : " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، ، (ص311). ، (ص192).
(4)نفس المرجع، (ص273).
(5)نفس المرجع، (ص322).
(6)نفس المرجع، (ص308).

ولعلنا نلاحظ هنا أيضاً، التشابه الكبير بين القصة التوراتية والخطوط العريضة لرواية (عيسو) من خلال تلك العلاقة التى جمعت بين " عيسو " وأمه " سارة " التى كانت سبباً فى حرمان ابنه البكر من الميراث، وافتعلت الخديعة الكبرى مع توءمه "يعقوب " . وتشير كل هذه الأحداث إلى مدى الظلم الذى وقع على " عيسو " بعد حرمانه من الميـراث وزواج توءمه " يعقوب " من المرأة التى أحبها. وتقوم المرأة هنا بنفس الدور الذى قامت به فى رواية " شاليف " السابقة (رواية روسية) ؛ فهى ترمز إلى الأرض، وقد فاز بها " يعقوب " وهو ما يعكس التناظر السياسى للصراع على أرض فلسطين بين اثنين يدعيان ملكيتهما لـها.

" وربما يمثل هذا مضمونا سياسيا، يشير إلى تمكين بريطانيا والدول الكبرى لليهود والصهيونية من الاستيلاء على فلسطين، ابتداء من وعد بلفور 1917 ومروراً بالانتداب البريطانى وحتى حرب 1948 واعتراف الدول الكبرى بإقامة دولة إسرائيل ورفض الفلسطينيين والعرب لقرار تقسيم فلسطين " [1].

وتشير الأحداث الروائية إلى قوة شخصية " سارة" بين أفراد أسرتها ؛ فقد خضع لـها زوجها " أبراهام " فى مطلبها بالرحيل عن القدس، ونجحت فى تمكين " يعقوب " من الفوز بالميراث والزوجة، وكراهيتها لـ"عيسو" كانت ضرورة ملحة، من أجل مسايرة أحداث القصة التوراتية فى الدور المهم الذى لعبته الأم فى اغتصاب الباكورة من عيسو، لاسيما أن "سارة " لم ترسل لابنها خطاباً واحداً بعد سفره إلى أمريكا:

" يكفى أن أقول لك، إنها لم ترسل لى خطاباً واحداً فى العام الماضى، منذ أن سافرت وحتى موتها فى نفس العام " [2].

وبعد عام من رحيل "عيسو " إلى أمريكا تموت أمه "سارة " ولم يحضر جنازتها:

" لم أحضر جنازة أمى " [3].

وهكذا، لعبت المرأة فى الرواية دوراً فاعلاً فى صوغ الأحداث، فسارة الأم تساعد "يعقوب " ابنها على اغتصاب حق "عيسو " فى المخبز وفى الزوجة، و" ليئة " التى كانت تحب "عيسو " تتزوج من " يعقوب " أخيه. ليؤكد لنا شاليف على مفهومه للمرأة فى أنها تستجيب لكل مريديها كما أكد فى روايته السابقة (رواية روسية). ولم يذكر لنا شاليف فى الرواية سر هذه العلاقة المتوترة التى جمعت بين "عيسو " و " أمه "، بيد أنه

---

(1) د. عبد الوهاب محمود وهب الله: الرواية السياسية فى الأدب العبرى المعاصر، مرجع سابق، (ص133).

(2) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص329).

(3) نفس المرجع، ، (ص92).

يصوغ الأحداث لتساير الأحداث المقرائية، فلم يكن هدفه العلاقات العاطفية بقدر ما كان هدفه البحث فى الصـراع بين " عيسو " و يعقوب " وإضفاء هذا على الأحداث الجارية فى القرن العشرين ؛ حيث يقول يوسف أورن : " إن وجود هذا السباب على لسان الأم فى قصة تقع أحداثها فى القرن العشرين وفى مقابل لتاريخ الاستيطان الجديد، الصهيونية، للشعب اليهودى على أرض فلسطين يشير إلى أن مثل هذه الرواية لم تهتم قصتها بالغرائز الإنسانية، وبحب الأخوين لامرأة واحدة، بل اهتمت وبحثت فى الصراع بين نسل يعقوب ونسل عيسو على هذه الأرض " [1].

(ب) العلاقة بين "عيسو" وأخيه "يعقوب" :

لم تكن العلاقة التى جمعت بين " عيسو " و " يعقوب " منذ نعـومة أظافرهما علاقة توءم، بل كانت تتسم بالأنانية والغيرة من جانب " يعقوب " الذى لقى معاملة خاصة من جانب أمه" سارة " انعكست، بالطبع، على علاقته بأخيه " عيسو " . وقد أثرت معاملة الأم المزدوجة تجاه ابنيها على مجريات الأحداث فى الرواية كما رسمها شاليف؛ حيث شعر " عيسو " بالظلم والقهر منذ أن كان طفلاً، وانتهى به المطاف إلى الرحيل بعيداً بعد أن غبن حقه فى المخبز والزوجة والأرض. وقد نجح شاليف فى استعطاف القارئ وهو يحكى على لسان " عيسو " القاص مدى الظلم الذى شعر به عيسو طوال أكثر من أربعين عاماً تقريباً عاشها فى المنفى، ليؤكد لنا على مركزية الصراع حول الميراث فى تاريخ الأسرة ؛ فيقول " عيسـو " عن أخيه ملخـصاً القصة كلـها :

> " إنه إذا تحدثت باختصار، تزوج من المرأة التى واعدتنى بها، وورث المخبز الذى أعده أبى لى، وأنجب ثلاثة أبناء وثكل البكر. أما أنا فقد سافرت إلى أمريكا، ولم أتزوج، ولم أنجب أولاداً ولم أثكل أحداً. هذه، فى الحقيقة، هى كل الحكاية " [2].

ويمضى " عيسو " فى حديثه، بكلمات تعبر عن الأسى والظلم الذى شعر بهما طوال حياته :

> " لقد مر خمسون عاماً، ولم تجعلنا عقارب القدر أنا وأخى التوءم متشابهين كثيراً " [3].

([1])يوسف أورن : " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت " ، مرجع سابق، (ص64).
([2])مئير شاليف : " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص95ـ96).
([3])نفس المرجع، ، (ص96).

وهكذا، "يبرز حديث عيسو مدى الظلم الذى وقع عليه، فقد حظى يعقوب بكل نعم الحياة المادية: امرأة، وأسرة، ومخبز، ووطن. أما حياة عيسو فكانت فى المنفى وفى كيان مجرد فى وطن الكلمات. إن الأحداث التى صاغها التاريخ تتضح الآن، فقد عاش نسل يعقوب ألفى عام فى المنفى كـ (مفكرين) حتى أنقذتهم الصهيونية من هذا الكيان. وقد أسس أبناء يعقوب ثمن تطبيعهم على نسل عيسو. وأتعس الخلاص الصهيونى مواطنى الأرض العرب الذين اضطروا للعيش فى المنفى وبدءوا يعيشون هناك كـ (مفكرين) ويظهر التأكيد على تلك الأحداث مدى العبء الأخلاقى تحت مسمى (الشتات الفلسطينى) الذى لم يكن بالأمر الجديد بالنسبة لليهود "[1].

وهكذا، بدت العلاقة بين "عيسو" و"يعقوب" منذ الطفولة متوترة للغاية، فقد كان يعقوب يسيطر على كل شئ، ويأتى "شاليف" بحادث النظارة ليبين لنا ذلك؛ فقد اشترى لـهما أبوهما نظارة واحدة يبادلانها فيما بينهما، ولكن "يعقوب" يسيطر عليها بمفرده دون مراعاة لأخيه فهو يتسم بالتبلد والأنانية:

" وضع يعقوب على الفور النظارة الخاصة بنا على عينيه، وفر بها إلى الخارج كالمنتصر "[2].

ويذهب بها "يعقوب" إلى مدرسته ويسير "عيسو" بجانبه:

" كنت أصاحبه عندما عرف الطريق من البيت إلى المدرسة ذهاباً وإيابا. فقد كان يقفز من حولى فى سعادة، ويصف لى فى حماس المعالم الجديدة للطريق الذى نسلكه "[3].

ويعترف عيسـو، منذ حادث النظارة، بأنهما ليسا بتوءمين:

" لسنا نحن بتوءمين منذ ذلك اليوم الذى تلقينا فيه نظارة واحدة ونحن لسنا بتوأمين "[4].

كان حادث النظارة هو بداية الشجارات بين الأخوين وظهور أنانية "يعقوب" تجاه أخيه " عيسو " كما يقول يوسف أورن محللاً الوضع القائم لتلك العلاقة بينهما: " لقد برزت لدى يعقوب منذ الطفولة النزعة فى العيش على ظلم أخيه التوءم، فها نحن نجده يسيطر على النظارة التى كان عليه أن يستخدمها مع عيسو. وبهذا الحدث الأول من الممكن أن

---

(1) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص64).
(2) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص119).
(3) نفس المرجع، ، (ص119).
(4) نفس المرجع، ، (ص181).

نشير إلى بداية الشجارات بين الأخوين... وفى وقت متأخر للغاية يأخذ منه ليئة. وبهذا السلوك من جانب يعقوب يبرز خط دائم، وهو أنه غير مستعد للتصالح مع أخيه، فعندما يتنافس كلاهما على شئ واحد فهو يسلب من أخيه مراراً وتكراراً كل حقوقه. إنه مهتم ببذل كل جهد لاستمرار هذا النهج مع أخيه. وهكذا يفسر لنا عيسو قلقه الخاص بيعقوب لإصراره على أن يكون الوريث الوحيد، الذي يؤكد تمسك أنسالـه بالميراث " [1].

ويشير " جيمس فريزر " فى كتابه (الفلكلور فى العهد القديم) إلى أن الجشع والمكر من أهم الصفات التى اتسمت بها شخصية " يعقوب "، حيث يقول: " كان يعقوب مثالاً للتاجر السامى اللين الحاذق والوافر الحيلة، الذى يحرص على المكسب، وعلى أن يتم صفقاته لا بالقوة، بل بالحذق، دون أن يتردد كثيراً فى اختيار الوسائل التى يبز بها منافسيه ويتفوق بها عليهم. هذا الجمع غير المرغوب فيه بين الجشع والمكر، يكشف عن نفسه فى الحوادث المبكرة فى حياة يعقوب التى دونها سفر التكوين، أعنى الحيل التى سعى عن طريقها لأن يخدع أخاه الأكبر عيسو، ويسلب منه حقه فى الميراث، كما يسلبه من بركة أبيه " [2].

وبشأن أنانية " يعقوب المفرطة تجاه أخيه " عيسو " يضيف " فريزر " قائلاً: " كان يعقوب وعيسو توءمين، ولكن حيث إن عيسو كان أكبر الأخوين، فقد كان حقه وفقاً للنظام الشائع أن تخلع عليه بركة أبيه وأن يرثه. أما الوسائل التى سعى يعقوب عن طريقها أن يسلب أخاه الأكبر من حقوقه، فكانت ببساطة مواقف حادة من المؤامرات، فقد استغل فى بداية الأمر جوع أخيه، فاشترى منه حقه فى الوراثة مقابل أكلة الثريد، ثم ارتدى بعد ذلك ملابس أخيه واصطنع ملمس جلده الكثيف الشعر ثم تظاهر لأبيه الكفيف أنه هو عيسو، وبذلك اغتصب بركة أبيه التى كان يعنى بها أخوه " [3].

ويشير "شاليف" أيضاً إلى السمات الشخصية لـ"يعقوب " فى الرواية، فهو شخصية متغطرسة، فلم يتوان " يعقوب " عن ضرب أخيه الأكبر إذا تطلب الأمر ذلك، فهو يضربه إذا هم وأخذ النظارة:

" نظر إلىّ يعقوب نظرة حادة، ثم انقض علىّ وبقوة غير متوقعة طرحنى أرضاً، وأخذ منى النظارة " [4].

---

(1) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص65).

(2) جيمس فريزر: الفلكلور فى العهد القديم (التوراة)، الجزء الثانى، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1982، (373،374).

(3) نفس المرجع، (ص 374).

(4) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص144).

لقد كان يتعامل مع أخيه، دائما، بالضرب والتشاجر، وربما كان تدليل أمه لـه على حساب أخيه الأكبر سبباً فى ذلك:

" انقض علىّ يعقوب ليضربنى، و لكننى أمسكته بقوة "[1].

ولم يكن أمام "عيسو" سوى أن يصف أخاه المدلل بالوحشية والقسوة، على الرغم من أنه كان يملك من القوة الجسمانية ما يمكنه من إيقافه عن ذلك:

" يجب أن أذّكر نفسى، بأن أخى يتسم بالوحشية والقسوة أكثر مما كنت أتوقع "[2].

وهكذا، كان من الطبيعى أن تتوتر العلاقة بين الأخوين، وبخاصة أن يعقوب يمثل لنا شخصية مستبدة أنانية تسيطر على كل شئ ولو بالقوة وتساعده أمه فى ذلك، فورث المخبز وتزوج من محبوبة، أخيه وحظى بالميراث كلـه دون أن يعبأ بمشاعر أخيه وحقه فى الميراث:

" ورث يعقوب المخبز، وحظى بليئة، وظل فى الداخل "[3].

أما " عيسو " فقد رحل وترك كل شىء، ولم يدافع حتى عن محبوبته التى كانت تحبه هى الأخرى. ويبدو أن قوة شخصية أمه كانت أكبر من أن يدافع عن حقوقه الشرعية. وقد آثر " شاليف " أن يسـبغ على " عيسو " هذه الصفات السلبية حتى يساير أحداث القصة التوراتية، فعلى الرغم من قوته الجسمانية التى تفوق توءمه " يعقوب " ؛ فقد تركه يضربه، وعوّده على أخذ ما لغيره، حتى وإن كان أخاه. وهى أمور ساعدت على تكوين شخصية " يعقوب " بالإضافة إلى تدليل أمه، وأدت فى النهاية إلى غبن حق " عيسو " فى أشياء كثيرة.

ويعلق الناقد الإسرائيلى " هليل فايس " على كل هذه الأشياء التى حظى بها "يعقوب" دون أخيه بقولـه:

" بعد أن سيطر يعقوب على النظارة، وساعده فى ذلك استماتة أمه المتعنتة، لم يكن أمام عيســو سوى الرؤية غير الواضحة، التى هى الرؤية الصحيحة لقاص ينادى بالعدمية مثلـه، أنه تخلى عن محبـوبته ليئة، التى كانت لـه. بينما يتزوجها يعقـوب المتعنت ويحظى بها. والسؤال هنا، لماذا اختارت ليئة يعقوب، وخضعت لـه. وهو سؤال لم تكن لـه إجابة معروفة فى الرواية "[4].

([1])نفس المرجع، (ص198).
([2])نفس المرجع، (ص137).
([3])نفس المرجع، (ص322).
([4])هليل فايس: " عليلاه، سفروت هاكلايون هايسرائيليت "(الحبكة، أدب الـهلاك الإسرائيلى)، مرجع سابق، (ص125).

(ج) دور المرأة فى حسم الصراع:

لعبت " سارة " أم التوءم دوراً كبيراً فى حسم الجولة الأولى من الصراع لصالح ابنها "يعقوب" على حساب توءمه "عيسو" الذى لقى معاملة سيئة من قبل أمه التى كانت سبباً فى رحيلـه وخسارته للأرض والمخبز والزوجة.

ويأتى دور المرأة – سارةـ هنا مكملاً لحبكة الرواية، حيث رسم لـها شاليف صورة لشخصية قوية متسلطة سيطرت طيلة حياتها على الأب والأبناء. ويبدو أن تلك هى سمة المرأة الإشكنازية التى ترتبط بزوج سفارادى، وهى تذكرنا بزوجة مولخو فى رواية (مولخــو) لـ أ. ب. يهوشواع. وسارة فى هذه الرواية " امرأة تعود جذورها إلى أسرة متهودة روسية تعيش فى الجليل، بينما ينتمى الأب إلى أسرة سفارادية الأصل ... لقد كانت شخصية الأم حاضرة فى كل مكان " [1]. وهو ما مكّنها من " مساعدة يعقوب ضد توءمه عيسو. وبتأثير منها يحظى يعقوب بكل شئ، ويعيش عيسو بعد ذلك حياة المنفى بعد أن تتدخل الأم فى قدره وتسبه وتلعنه " [2].

ولم تكن سيطرة الأم على "عيسو" و"يعقوب" فقط بل شملت الأسرة كلـها، فقد أجبرت الجميع على ترك القدس، فعلى الرغم من أن أسرة ليفى التى ينتمى إليها أبراهام زوجها هى من أقدم الأسر اليهودية فى القدس التى تمثل خمسة عشر جيلاً فى المدينة ... فقد أجبرت أبراهام على قطع شجرة الأنساب القدسية لأسرته، وفى يوليو 1927 تجبره على السفر إلى القرية هو وتوءميها فى عربة البطريرك " [3].

وعلاوة على ذلك، كانت "سارة" تتمتع ببنيان جسمانى قوى جعلـها تتعامل بعنف مع البائعين وتطرحهم أرضاً، ولم يهدها بعد ذلك إلا المرض كما يقول شاليف ذاته: " عندما كتبت أن سارة توفيت متأثرة بالسرطان القاتل والمؤلم، فإن هذا أمر يتناسب ببساطة مع امرأة قوية مثل سارة التى لم تعرف الألم منذ ولادتها، وأن الأمر الوحيد الذى يمكن أن يقتلـها هو المرض ... وفى المقابل كان هناك أبــراهام ليفى زوجـها، الذى توهـم المرض، وكان يعانى من آلام لم تكن موجودة " [4].

أما " حنة ياعوز " فيرى فى " سارة " أنها شخصية تفتقر إلى الحكمة والعقل، فهى شخصية طائشة لا تحسب عواقب ما تفعلـه، حيث يقول: " تعرض هذه الشخصية النسائية فى الرواية كشخصية ذات قوة بدنية غير عادية وجمال غريب لمتهودة شقراء قبلت

---

(1) ايلات نجف: " سيحوت أنتيميوت " (أحاديث ودية)، مرجع سابق، (ص369:367).

(2) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص63).

(3) يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص71).

(4) ايلات نجف: " سيحوت أنتيميوت " (أحاديث ودية)، مرجع سابق، (ص369).

اليهودية بناء على رغبة أبيها الملحة ... ولكنها تفتقر إلى الحكمة والعقل ... لا سيما أنها دفعت نفسها إلى عربة البطريرك اليونانية هى وزوجها (بدون رغبة منه) ومن توءميها لتخرج من القدس فى ليلة حدثت بها هزة أرضية " [1].

وقد تشير كل هذه الصفات التى جمعها " شاليف " فى شخصية الأم إلى الحكمة الموضوعة فى الرواية من قبل المؤلف، فأمامنا شخصية مثل " سارة " التى لا تعرف سوى لغة القوة، وتفتقر لأدنى درجات الثقافة، حيث لا تعرف القراءة والكتابة وقد فشلت فى تعلمها، وعلى الرغم من ذلك تلعب دورها الفاعل فى حسم الصراع فى الجولة الأولى لصالح ابنها " يعقوب " . ويربط " شاليف " هنا افتقارها للحكمة والعقل بما يمكن أن يحدث فى الجولة الثانية من الصراع، فهى لم تحسب عواقب ما يمكن أن يحدث لابنها المحبوب " يعقوب " . وإتيان " شاليف " لـها بتلك الصفات إنما هو تحذير منه من الإقدام على حل لصراع مثل هذا دون تأمل أو دراسة، أو اعتماد على أساطيـر لا تمت للواقع بصلة، فمن يقدم على مثل هذه الحلول، فهو يفتقر إلى العقل والحكمة وعليه فلينتظر ما يمكن أن يحدث فى الجولة الثانية.

(2) الجولة الثانية من الصراع (موقف شاليف من الأسطورة التوراتية) :

كان موقف شاليف من أسطورة المقرا مغايراً تماماً لموقف الصهيونية والمعسكر الصهيونى اليمينى المتطرف فى إسرائيل؛ فبينما حسمت الجولة الأولى لصالح يعقوب، واتخذها اليمينيون الإسرائيليون ذريعة لحل الصراع بكل بساطة، فإن شاليف يحذر فى هذه الرواية من الاعتماد على مثل هذه الأساطير التى تحل الصراع بامتلاك أحد الأخوين للميراث كلـه _ الترانسفير_ مشيراً إلى أن مثل هذه الحلول التى تفتقر للحكمة والعقل، وتستند إلى أوهام وأساطير، تنذر بعواقب وخيمة، قد تحدث فى الواقع المعاش وكأن لسان حالـه يقول (علينـا الانتـظار حتى نرى ما يمكن أن يحدث فى المستقبل، أو فى الجولة الثانية من الصراع) ؛ لأن الجولة الثانية ستكون لـها كلمة أخرى وربما تحسم لصالح عيسو بعد سنوات عديدة راح فيها ضحية للظلم والقهر واستلاب الحق.

وتبدو المراحل التنبؤية والتمهيدية لاحتمال فوز "عيسو" بالجولة الثانية كما رسمها شاليف فى بعض المظاهر التى أكد من خلالـها "شاليف" على رفضه لادعاء الحق الدينى لليهود فى أرض فلسطين، حيث تشير بقية أحداث الرواية إلى أفول نجم الصهيونية وميل كفة الصراع فى اتجاه "عيسو" ، ويمكن أن نوجز بعض هذه المظاهر فى النقاط التالية :

(أ) العلاقة بين "رومى" و "عيسو" :

(1)حنا ياعوز : " رومان عيساف " (رواية عيسو)، مرجع سابق، (ص16).

ارتبطت " رومى " ابنة "يعقوب" التى تشير، فى الرواية، إلى معسكر السلام فى إسرائيل بعلاقة طيبة مع عمها "عيسو"، واشتدت أواصر العلاقة بينهما بعد عودته من المنفى (أمريكا) حيث تم استدعاؤه ليرعى أباه "أبراهام" بعد أن هده المرض، فى إشارة من شاليف إلى البدايات الأولى لفوز "عيسو" بالجولة الثانية، وبخاصة وقد ساءت العلاقة بين "يعقوب" وزوجته "ليئة" بعد مقتل ابنهما البكر "بنيامين" فى حرب 1967 عن طريق الخطأ بعد تبادل لإطلاق النار بين وحدتين عسكريتين إسرائيليتين.

وتشير هذه العودة، مبدئياً، إلى عودة "عيسو" للقيام بدور ما فى حياة الأسرة بعد أن انتهى دور "يعقوب" بوفاة أمه "سارة" متأثرة بمرض السرطان وفشلـه فى إعداد وتربية أبناءه، حيث تتعاطف "رومى" مع عمها، " وترفض كذلك نتائج الجولة الأولى في صراع الميراث، وتعاطفها مع عيسو يعبر عن ما هو متوقع فى الجولة الثانية، حيث سيقوّم الظلم الذى وقع على عمها من أبيها. وبذلك تستمر رومى فى القيام بالدور الرمزى السابق للنساء، الذى قام به من قبلـها كل من سارة وليئة، وهو أن السيادة على المرأة هو بمثابة السيادة على الأرض. وبخاصة أننا نجد أن رومى تعرض على عيسو إعادة الميراث كلـه الذى سلبه منه أبوها. وتتعامل معه بلطف، وفى النهاية تصل إلى فراشه. وهى تصحح بذلك أخطاء ليئة التى سحبت حبها منذ أربعين عاماً – 1948 – من عيسو وأعطته ليعقوب"؟[1].

وربما أيضاً تصحح هذه العلاقة أخطاء كل من يعتقد فى أن الصراع انتهى به المطاف إلى هذا الوضع، وقد كتبت هذه الرواية للسخرية من الأسلوب السياسى للمعسكر الصهيونى القومى فى السياسة الإسرائيلية فى حل الصراع من خلال أوهام مثل (أرض إسرائيل الكاملة). وتأتى شخصية " رومى " فى الحبكة الروائية كممثلة لمعسكر السلام الإسرائيلى الذى يقترح اقتسام الأرض بين الشعبين الفلسطينى والإسرائيلى. وتتجه رؤية شاليف – حسبما يرى أورن – إلى القول: " يخطئ كل من يعتقد أن الحل المقرائى حول مستقبل أرض فلسطين من الممكن تحقيقه بين نسل يعقوب وعيسو، لأن هذا النزاع لن ينتهى بتخلى عيسو عن حقوقه فى الميراث، ومن الخطر الاعتماد على أسطورة المقرا التى تحل حالات النزاع حول الميراث بمثل هذه البساطة، حيث إن القصص المقرائية التى حكت عن إمكانية حلول مثل هذه تعتبر(أساطير) وتقترب كثيراً من الخيال المختلق الذى يحقق حلولاً لن تحدث على أرض الواقع مدى الحياة ... لأن مثل هذه الحلول من شأنها إراقة الدماء فى الحروب التى لا فائدة منها والتى سوف تستمر حتى يفيق البعض من أوهامهم حول أرض إسرائيل الكاملة " [2].

---

(1)يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص70).

(2)نفس المرجع، (ص69).

وقد تعددت مظاهر هذه العلاقة الودية التى جمعت بين عيسو وابنة أخيه يعقوب، فيطالعنا القاص بوصفه لرومى الجميلة التى تحب عمها وتسعد بلقائه:

" كانت ناصعة، طويلة، جميلة عريضة الكتفين. وفى قفزة واحدة من فوق درجات السلم الأربع طوت يديها القويتين حول عنقى وقبلتنى فى فمى "[1].

وإمعانا فى إضـفاء صفة الطبيعية على هذه العلاقة، كانت رومى تشبه عمها فى ملامحها، وكانت تراسلـه وهو فى أمريكا وتخبره بكل ما يحدث فى بيت أخيها، ولم تنقطع أحاديث الود بينهما:

" إنها طويلة القامة مثلى، وشقراء مثلى أيضاً ... إنها تنادينى عمى ... عمى اللطيف ... وحتى تلك اللحـظة لم أره إلا من خلال الصور التى أرسلتها لى رومى "[2].

" وفى إحدى الصور المريعة للغاية التى التقطتها لأبيها وأرسلتها لى فى أمريكا، بدا يعقوب فى الصورة وهو راكع على يديه وركبتيه "[3].

وتذكرنا هذه الصورة التى التقطتها " رومى " بالمشهد المقرائى الوارد فى الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التكوين الذى يصور " يعقوب " وهو يرتعد من الخوف من أخيه " عيسو "، وتحايلـه على هذا الخوف بإرسال رجالـه مع هدايا وفيرة إلى " عيسو "، وما أن التقيا حتى ركع أمام " عيسو ": " وسجد إلى الأرض سبع مرات، حتى اقترب إلى أخيه " (التكوين إص 33: 3). " وهذا الخوف هو الخوف الذى ظل ملازماً لليهود على مدار تاريخهم من كافة (الجوييم) أو (الأغيار) أو الشعوب غير اليهودية التى كان يرمز لـها بنسل عيسو من الأدوميين "[4].

وكانت رومى من هواة التصوير، فهى تصور كل شئ وتبعث بصورها إلى "عيسو" فى أمريكا، وكأنها تصور الأحداث فى صور فوتوغرافية لعمها وهو بعيد:

" ... وعلى كل صورة كانت تكتب عدة كلمات تعبر عن الحدث فيها: (جدى يجلس على الأريكة)، (أبى يجمع مياه المطر فى صفائح)، (بنيامين يتسلق الشجرة) "[5].

ومن الملاحظ هنا، أن هواية " رومى " فى التصوير لم تأت عفوية من قبل " شاليف " فهى تصور لعمها " عيسو " وهو فى المنفى أدق تفاصيل الحياة التى تحدث على أرض

---

(1) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص93).
(2) نفس المرجع (ص95:93).
(3) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص106).
(4) د. رشاد عبدالله الشامى: أدب ما بعد الصهيونية، مرجع سابق، (ص 36).
(5) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص269).

فلسـطين، وكأن " شاليف " يؤكد من خلال تلك الصور الفوتوغرافية على أن " عيسو " ليس بعيداً عن هذه الأرض، وسوف يعود إليها فى وقت ما، مؤكداً على أن الصراع لن ينتهى كما توهم القادة الصهيونيون.

وعن موقف "يعقوب" من هذه العلاقة، يذكر لنا "عيسو" بأن يعقوب أرسل إليه فى المنفى خطاباً كتب فيه، إنه يشعر بأن رومى ابنة "عيسو" وليست ابنته، وكأنه نادم على زواجه من لبئة محبوبة "عيسو" :

" لدى إحساس بأنها يجب أن تكون ابنتك " (1).

وربما هذا ثمة مشهد مقرائى آخر يذكرنا به "شاليف" من خلال الخطاب الذى أرسلـه " يعقوب " لأخيه " عيسو " حينما كان يرسل إليه بالرسل، " وأرسل يعقوب رسلاً قدامه إلى عيسو أخيه إلى أرض سعير بلاد آدوم " (التكوين 32 : 3).

وكان "عيسو" هو الآخر يحبها كثيراً، وأرسل لـها بناء على رغبتها للسفر إلى أمريكا. ولم تلعب أو تلـه إلا معه :

قالت لـه : " هيا نلعب أنت الفأر، وأنا قطة جائعة " (2).

ويعلق يوسف أورن على ملاحقة "رومى" لعمها "عيسو" وعلاقتهما معاً، بقولـه : " فى مقابل ملاحقة رومى لعمها عيسو، فهى تحرص على تخليد أبيها يعقوب، وتعبر من خلال هذه التخليد عن توقعاتها للنهاية المفاجئة والدرامية للنزاع بين الأخوين : سوف يدفع يعقوب ثمن خطئه تجاه عيسو الذى حدث منذ أربعين عاماً، فلن يكون لـه وريث من نسلـه يقوم بتشغيل المخبز والاستمرار فى صنع الخبز. وفى الجولة الثانية سوف يكون عيسو على وشك الفوز بالمخبز. هكذا يخّمن شاليف ما يمكن حدوثه، عن طريق رومى، من نتائج النزاع بين العرب واليهود على أرض فلسطين، إذا استمر اليمين الصهيونى فى قيادة الدولة " (3). وبخاصة أن " رومى " تشير فى الرواية إلى حركات السلام فى إسرائيل وترى أن ما حدث لعمها من ظلم هو بمثابة خيانة لـه لا يستحقها، ويمكننا أن نلاحظ هذا فى عنوان إحدى معارضها للصور الفوتوغرافية الذى يعبر عن تلك الخيانة :

" لدى بالفعل اسم لـه : طلقة فى الظهر " (4).

كما استطاع شاليف أن يصور لنا رومى المصورة بنجاح " لا سيما أن موضوعات التصوير تبرز فى الرواية بشكل كبير، ولكى ينجح فى رسم شخصية رومى كمصورة التقى

(1)نفس المرجع (ص269).
(2)مئير شاليف : " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص95).
(3)يوسف أورن : " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص70).
(4)مئير شاليف : " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص248).

شاليف وتحدث مع المصورات عاليزا أورباخ وميخل هييمان " [1]. وجاء لنا برومى ابنة يعقوب التى كان شاغلـها الشاغل هو أن تصور حياة أبيها اليومية فى معرض " فهى تصوره يومياً وفى كل الحالات. لقد كان حلمها هو عمل معرض للصور، لتعرض فيه أباها يعقوب سواء أكان ذلك وهو فى وضع لطيف أم مربك. وتلك هى طـريقة التغلب على الألم. فهى تتبع أباها وتلاحقه بجنون، فالتصوير هو تجربة أخرى لجمع وادخار الحياة بأسلوب موسوعى، من خلال تجميد الحياة فى لوح التصوير الموضوعة فى عشرات الأدراج " [2].

وربما كانت تصور الخيانة التى وقعت ضد عمها عيسو، وتصور ما آل إليه الخائن من حياة تعسة مريرة، وبخاصة وأن عيسو كان يصـور الطرف الآخر فى الخيـــانة بأسلوب آخر " حيث كان يجمع بنفسه صوراً لنساء تشبه أمه: نساء طويلات القامة عريضات الكتف، وذات عضلات قوية " [3].

ومن خلال هذه العلاقة الوطيدة التى جمعت بين "عيسو" وابنة أخيه "يعقوب"، يمكن القول، " إن شاليف يرفض فى روايته (عيسو) نتائج الجولة الأولى، ويرفض المرجعية التوراتية فى حل الصراع، ويجعل سياق الحبكة الدرامية فى روايته (عيسو) ينحو نحو عودة الميراث لمن سلب منه وهو عيسو، بمساعدة من رومى ابنة يعقوب التى تقتنع بقضية عمها وتتعاطف معه " [4].

(ب) فشل يعقوب فى إعداد وريث للمخبز (فشل الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل المؤسسين):

عبر شاليف فى رواية (عيسو) عن إخفاق الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل المؤسسين مؤكداً على ما طرحه من إخفاق لـها فى روايته السابقة (رواية روسية). ويعد فشل يعقوب فى إعداد أبنائه كورثة للمخبز من بعده والذى يعبر عن فشل الصهيونية أيضاً مظهر جديد من مظاهر احتمالية فوز " عيسو " بالجولة الثانية فى الصراع.

" وفى عملية المضاهاة بين القصة الأسطورة وبين الرواية المعاصرة التى تحاول صوغ القصة الأسطورة بما يتفق مع العدل الذى جافته هذه الأسطورة، نجد أن القاص يلجأ إلى جعل كافة أبناء يعقوب الذين تمنى أن يكونوا ورثته، إما أنهم يموتون فى الحرب أو

([1])ايلات نجف: " سيحوت أنتيميوت " (أحاديث ودية)، مرجع سابق، (ص371).

([2])هليل فايس: " عليلاه، سفروت هاكلايون هايسرائيليت "(الحبكة، أدب الـهلاك الإسرائيلى)، مرجع سابق، (ص128ـ129).

([3])هليل فايس: " عليلاه، سفروت هاكلايون هايسرائيليت "(الحبكة، أدب الـهلاك الإسرائيلى)، مرجع سابق، (ص129).

([4])د. رشاد عبداللـه الشامى: أدب ما بعد الصهيونية، مرجع سابق، (ص 38).

يكبرون، وهم غير مؤهلين لتحمل تبعات التركة، ويعيشون فى جو من أساطير مختلقة تستدعى أساطير التوراة فى ثوب معاصر، فهم خارج الواقع المعيش" [1].

وفى البداية، وعلى غرار (مرحلة النجاح) التى يعقبها (مرحلة الفشل)، كان "يعقوب" سعيداً للغاية بإنجابه ابنه البكر " بنيامين " كوريث للمخبز من بعده، وأخذ يعده إعداداً جيداً، فهو يأتى به إلى الأرضية الخرسانية الجديدة للمخبز ويغرز كف يده فى الخرسانة الرطبة بجوار كفه هو الآخر. لقد وضع به كل الآمال كوريث للتركة والمخبز:

" حينئذ جاء يعقوب بابنه بنيامين إلى الأرضية الجديدة، وجعلـه يبرك أرضاً، ثم ألصق كف يده وضغط بها على الخرسانة الرطبة ... وبجوار بصمة يد ابنه، غرس يعقوب كف يده هو الآخر ... وتحت بصمات يديهما فى الخرسانة، أخذ أخـــى يكتب بالمسمار: (يعقوب ليفى وابنه بنيامين، خبازون، أبريل 1955) ثم قال لـه: من الآن، يابنياميكو، هذا مخبزك أيضاً، سوف تكبر وتعمل هنا مثل أبيك وجدك " [2].

وعلى الرغم من أن المخبز كان يعد لـ" بنيامين" ، فهو الوريث المنتظر الذى وضعت فيه كل الآمال، فإن "شاليف" آثر أن يصوره كشخصية غير مؤهلة لذلك، حيث كان يتسم بالحيرة والتردد، ولا يعرف ماذا يريد ؟ ، وهى نفس الصفات التى اتسم بها جيل الأبناء فى رواية (رواية روسية):

"لم يجب كان ينظر إلىّ دون أن يجيب ثم قال: لا أريد هذا، وسأقرر ذلك بعد الخدمة العسكرية، وربما أريد مع كل هذا أن أتعلم، وربما أرغب فى السفر" [3].

ولم يتسم الوريث الذى كان يعده " يعقوب " بالحيرة والتردد فحسب، بل كان مستهتراً كسولاً، يرقص فقط مع الفتيات، ويعرف فقط كيف يستمتع بالحياة:

"على الرغم مما كان لديه من قوة، فإنه كان كسولاً بما فيه الكفاية، ولا يوجد شئ مهم بالنسبة لـه. فقط كان يرقص مع الفتيات ويستمتع بالحياة" [4]

وفجأة، يطالعنا القاص بمقتل " بنيامين " من جراء طلق نارى، فقد اشتبكت وحدتان عسكريتان إسرائيليتان فى حرب 1967 وتبادلا إطلاق النار عن طريق الخطأ، وهو

([1])نفس المرجع، ، (ص 38).
([2])مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص246ـ347).
([3])نفس المرجع ، (ص238).
([4])نفس المرجع، (ص239).

الحادث الذى أطاح بآمال " يعقوب " فى الوريث القادم، ولم يترك بنيامين خلفه سوى كف يده فى الأرضية الخرسانية، التى كان يعقوب ينظفها من بقايا القمح :

" قتل بنيامين فى وادى الأردن، عندما كان يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً، ولم يترك وراءه شيئاً، سوى وعد كف يده التى ظلت مطبوعة فى الأرضية. وكان يعقوب ينفخ بها وينظفها من بقايا القمح والغبار الذى علق بها " [1].

ولم يجد " يعقوب " بدّا من معرفة أسباب مقتل ابنه الذى راح ضحية العبث فى الجيش الإسرائيلى، سوى الذهاب إلى المستشفى لمعرفة الحقيقة :

" لم يحكوا لى أحد عما حدث ؟ وكان لابد من معرفة الحقيقة بمفردى ؟ فذهبت إلى المستشفى فوجدت شاباً مصاباً هناك حكى لى عن كل شئ، وكيف حدث هذا وكيف تلقى بنيامين رصاصة، وسقط بعدها وأخذ يصرخ دون أن يعثر عليه أحد " [2].

أما " ليئة " أمه فقد أصابها الذهول مما حدث لابنها، ودخلت حجرته ولم تفارقها سنوات طوال ؛ حتى ألم بها المرض ؛ وظلت طريحة الفراش.

ويبدو أن حادث مقتل " بنيامين " من جراء خطأ عسكرى بالجيش الإسرائيلى، هو حادث حقيقى وقع بالفعل فى أثناء خدمة " شاليف" نفسه بالجيش الإسرائلى، حيث يقــول " شاليف" : " فى الحقيقة. كانت هناك كتيبتان من وحدة واحدة تابعة للجيش الإسرائيلى أطلقت كل منهما النار على الأخرى فى نوفمبر 1967، وقد حدث هذا بينما كنا على وشك الدخول فى وادى الأردن. وقتل بعض الأفراد، أما أنا فقد أصبت إصابة بالغة ؛ وفى التحقيق الذى جرى بالمستشفى جاء إلىّ بعض الضباط الكبار وحذرونى من الكشف عما حدث لأى فرد. فتساءلت ماذا يكون الأمر لدى الأسر الثكلى ؟ فقالوا هذا سر. فقلت لـهم سوف أحكى ما حدث. وبعد عدة أيام جاءنى أحد الآباء، كان ابنه ضابطا وقتل. فجلس بجوار سريرى، وأخذ يبكى ويتوسل إلىّ حتى أحكى لـه ما حدث فى وادى الأردن. فحكيت لـه وشكرنى. وبعد عدة سنوات علمت أنه مات من الألم والحزن. وقبل أن اكتب تلك الرواية ، تحدثت مع زوجته. لقد كانت آلام الجرح الذى ألم بى أقل بكثير من آلام ذلك الرجل المكلوم الذى التقيت به " [3].

لقد تأثر " مئير شاليف " بذلك الحدث وبالأمهات والآباء الذين فقدوا أبناءهم، وامتلأت صفحات الرواية بالحديث عن الألم والأمهات الثكلى وعن الحروب التى لم تترك وراءها سوى الدمار والآلام للأمهات والآباء :

---

(1) نفس المرجع، (ص347).
(2) مئير شاليف : " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص283).
(3) ايلات نجف : " سيحوت أنتيميوت " (أحاديث ودية)، مرجع سابق، (ص372).

"هنا كل شيء على هذا النحو مكدس بدرجة كبيرة ... فالحرب هى حروب جوار. فنحن نرى من البيت الدخان ونسمع الصرخات. فكل هذه البلاد هى هرمون مخرب ... وكل من قتل هنا، قتل على مسافة ساعتين أو ثلاثة من خروجه من البيت. أو على الأكثر أربع ساعات " [1].

إن شاليف يأتى هنا بحادث مقتل " بنيامين " فى الجيش الإسرائيلى ليعبر عن شيئين، هما: فشل الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل المؤسسيين، وفشلها كذلك فى تحقيق الأمن والوطن الآمن لجموع اليهود المهاجرة إلى أرض فلسطين، لا سيما أنه عايش هذا الوضع بنفسه، وعبر عنه فى صفحات عديدة من الرواية. حتى " يعقوب " مقت الحروب وخرابها فهو يزور دائماً قبور قتلى الحروب ؛ لأن آباءهم قد ماتوا، وأطاحت الشيخوخة بإخوانهم ، فهم يريدون الحياة (الرواية، ص 183). كما أنه يرسل بخطاب لأخيه " عيسو " فى أمريكا يمقت فيه الحروب، ويصف لـه القبور التى امتلأت بالحشرات والـهوام، والوضع المأساوى الذى آلت إليه الأسر بعد فقد أبنائها فى الحروب (الرواية، ص 183).

وقد عبر شاليف عن الحروب وما تخلفه من آلام للآباء والأمهات بصورة رائعة فى الرواية قد يتأثر بها القارئ الإسرائيلى ويفكر فى الأمر جيداً. وقد نجح فى هذا " لأنه التقى بعشرات الأمهات الثكلى، لكى يصف الحزن الذى ألم بيعقوب وليئة بعد فقد ابنهما بنيامين " [2]. وعبر " شاليف " عن هذا على لسان " عيسو " فى الرواية:

" ... هؤلاء هم أبناؤنا الموتى الذين أدخلونا جميعاً فى خندق واحد. كانت هناك أم قتل ابناها الاثنان. وقالت لى، هل سمعت عن أمر مثل هذا ؟ ابنان فى حرب واحدة ... وكان هناك أب يعمل ضابطاً بالشرطة، جاء بملابسه الرسمية، وهو محطم إلى شظايا... وخبيرة تجميل، أتت ومعها ابنتها الصغيرة التى بقت لـها ... ولم تتوقف عن الحديث عن ابنها وكيف كان ناجحاً " [3].

ويمكننا أن نجد فى تلك الكلمات التى تعبر عن فظاعة الحروب ونتائجها تعبيرا حقيقيا وواقعيا عن حالة المجتمع الإسرائيلى الذى يتعامل مع الحروب كما لو كانت حلقة مفرغة لا فكاك منها، " وهو الأمر الذى جعل المجتمع الإسرائيلى يعيش منذ وجوده تناقضاً حاداً بين فرضيات الأيديولوجية الصهيونية التى تدعو إلى جعل اليهود شعباً مثل سائر الشعوب وبين إفرازات الوجود الإسرائيلى القائمة على حتمية التوسع فى الأراضى سواء لأسباب

(1) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص182ـ183).
(2) ايلات نجف: " سيحوت أنتيميوت " (أحاديث ودية)، مرجع سابق، (ص371).
(3) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص201ـ202).

أيديولوجية صهيونية أو أمنية. وهذا التناقض الحاد الذى يعيشه الإسرائيليون، هو تناقض لا يملكون لـه حسماً " (1).

وقد عبرت عالمة النفس الإسرائيلية " عاميا ليبليخ " عن هذه الظاهرة التى لازمت الوجود الصهيونى على الأرض العربية بقولـها: " إن التعايش مع الحرب – أو حسب أقوال الشاعر الإسرائيلى ناتان ألترمان (الحياة على خط النهاية) – كان ومازال جزءاً رئيسياً من حياتنا، منذ إقامة الدولة وكذلك فى الفترة السابقة عليها ... ولكن الخوف من الـهزيمة الذى يعنى موت الأعزاء علينا وربما ما هو أفظع من ذلك، قد زاد بعد حرب 1973 " (2).

ولعلـها كانت ظاهرة عبر عنها الكثير من الأدباء الإسرائيليين على الساحة الأدبية فى إسرائيل، وهى تشير فى غالب الأحيان إلى اتهام الصهيونية بذلك الوضع المتأزم الذى آل إليه المجتمع الإسرائيلى الذى أصبح بمثابة المجتمع الثكنة. ولم ينس شاليف وهو بصدد نقد الصهيونية أن يعبر عن حتمية الحروب ونتائجها المريعة بالنسبة للأباء والأمهات من خلال " بنيامين " الذى كان أمل أسرة " يعقوب "، وكشف لنا كيف قضت الحرب على هذا الأمل، ليعبر هذا عن موقفه من الصهيونية التى أودت بحياة الكثيرين من الأبناء بفعل الحروب التى خلّفتها لدولة إسرائيل، وبفعل نظرياتها وأساطيرها الجوفاء التى اعتمدت عليها فى صراعها مع الفلسطينيين والعرب.

وعلى الرغم من أن موت " بنيامين " غيرّ الكثير من الأمور فى حياة أسرة " يعقوب " وزعزع الاستقرار فيها، وأطاح بالعلاقة بين " يعقوب " وزوجته " ليئة "، فإن " يعقوب " كان مصراً على وجود وريث لـه كبديل لبنيامين. وكان " ميخائيل " هو الوريث البديل لبنيامين، وقد ولد باغتصاب " يعقوب " لزوجته " ليئة " وهى نائمة ليجبرها على إنجاب وريث لـه (الرواية، ص 375). كان أبوه يحبه كثيراً ويهتم به وبشئونه، بعد أن تجدد الأمل لديه فهو يعد لـه الفطائر كل ليلة ليأخذها معه إلى المدرسة، ويغضب " يعقوب " إذا رجع بها ولم يأكلـها:

> " جثا يعقوب على قدميه واحتضن ابنه ثم انتصب وفتح حقيبته، وقال لـه، لم تأكل الفطائر التى أعددتها لك، إننى أشعر بمهانة بالغة، حيث كان " يعقوب " يعد لابنه ميخائيل فطيرتين صغيرتين كل ليلة " (3).

---

(1) د. رشاد عبداللـه الشامى: عجز النصر، الأدب الإسرائيلى وحرب 1967، مرجع سابق، (ص7).

(2) (نقلاً عن د. رشاد عبداللـه الشامى: عجز النصر، الأدب الإسرائيلى وحرب 1967، مرجع سابق، ص 7).

(3) مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص138).

ولخوف " يعقوب " على ابنه " ميخائيل " ، كان يأمر " شمعون " ابن العمة " دودوتش " بمصاحبته لأى مكان يذهب إليه ، فهو يصاحبه إلى المدرسة ذهاباً وإياباً :

" كان يصاحب ميخائيل إلى المدرسة يومياً ، ويعيده كذلك من هناك " [1] .

وكانت الأسرة كلـها تهتم به وتعلمه فيما عدا أمه " ليئة " ، فكانت العمة " دودوتش " تطعمه وتسقيه وتهتم بملابسه :

" بدأت تياه دودوتش تعلم ميخائيل هذا الأسبوع ...

" أخذت ميخائيل إلى المطبخ وأخذت تطعمه بملعقة خشبية ... " [2] .

وعلى الرغم من اهتمام " يعقوب " بابنه " ميخائيل " الذى يعده إعداداً جيداً لوراثة المخــبز فإن " ميخائيل " لم يكن هو الوريث المناسب للمخبز ، لتتبدد آمال " يعقوب " مرة ثانية ، ويعود بنا "شاليف " فى الرواية ليحصد الأمل بعد زراعته ، حيث تشير كل الرموز فى الرواية إلى أن " ميخائيل " الصغير ليست لديه القدرة المناسبة على أن يكون وريثاً للمخبز ، وقد بدا ذلك فى الأوصاف التهكمية التى أسبغها عليه "شاليف " :

" لميخائيل مشية مضحكة ، لا هى بالسير إلى الأمام ، ولا هى بالترنح جانباً كما انه يلوح بذراعيه ، ليبدو وكأنه يحاول التحليق " [3] .

و "ميخائيل " كذلك لا يشعر بالألم ، وهو الأمر الذى جعل " يعقوب " يعيش فى قلق دائم . فهو يفحصه يومياً خشية أن يكون جرح أو أصيب . وينظر فى فمه ويفحص أسنانه وأذنه ويقيس لـه درجة الحرارة يومياً :

" خلع يعقوب نظارته لكى يرى جيداً ، واقترب برأسه ناحية ابنه...خشية أن يكون اصطلى بالنار أو طعن أو جرح ... ثم ألقى بنظرة صغيرة بمصباحه إلى تجويف الفم وكأنه طبيب أسنان وكان يقيس لـه درجة حرارته يومياً " [4] .

ويرى بعض النقــاد الإســرائيليين أن المقصود بـ" ميخائيل " فى هذه الرواية هـو " يتسحاق شامير " [•] رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق ، وبخاصة أن وصف " شاليف " لـه فى مشيته تشبه إلى حد كبير مشية " شامير " ، كما أن عدم شعــوره بالألم يشير إلى سـياسات " شامير " كما يقول أورن : " يتمتع ميخائيل بخاصية فريدة ، فهو لا يشعر بالألم ... إنه لم يشعر بالألم فى أثناء عملية الولادة أو أثناء الختان ، وعلى الرغم من أن هذه الخاصية تمنحه قوة خاصة فإنها تجعلـه يعيش فى خطر ... وفى رأى شاليف فإن هذه هى

---

(1) نفس المرجع ، ، (ص137) .

(2) نفس المرجع ، ، (ص138ـ139) .

(3) مئير شاليف : " عيساف " (عيسو) ، رواية ، مرجع سابق ، (ص137) .

(4) نفس المرجع ، ، (ص319 : 321) .

(•) اسحاق شامير : رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق ، كان اسم "ميخائيل " هو الاسم الكودى لـه عندما كان أحد زعماء منظمة "لحى " اليهودية الإرهابية السرية .

مشكلة شامير / ميخائيل فى الوقت الحاضر ويقصد بذلك يتسحاق شامير ... إن هذا الوصف التهكمى يكشف لنا عن اقتراب شاليف من ميخائيل رئيس وزراء إسرائيل. فها هو يتفاخر ببعد نظره وبقدراته السياسية الجازمة ولا يشعر فى ظل هذه المكانة بخطر الميراث "[1].

وبالإضافة إلى خاصية عدم الشعور بالألم، فإن " ميخائيل " كذلك يميل إلى اختلاق القصص الوهمية والخيالية فهو يتخيل أشياء كثيرة ويظن أنها حقيقة، إنه لا يعرف التمييز بين الواقع والخيال وهى صفات يعرفها الجميع عنه:

" إنه لن يقول شيئاً، وحتى إذا حكى فلن يصدقه أحد فالكل يعرف حكاياته الخرافية. لقد حكى أنه رأى أباه يتسلق المدخنة فى الليل، وأن الملائكة تعلمه الطيران، وحكى أن شمعون أمسك بإيتسيك وهو يسرق من المخزن فخنقه حتى أغمى عليه. إنه يتمتع بتخيلات غريبة للغاية "[2].

وفى حقيقة الأمر، يأتى وصف " ميخائيل " على هذا النحو من قبل " شاليف " لكى يؤكد على أن صناعة الأسطورة والقصص الخرافية أمر سهل، يمكن لأى أحد أن يختلقه، ويوهم نفسه بأنه حقيقة، كما أن اختلاق ميخائيل للقصص الوهمية يشير إلى اختلاق الصهيونية للأساطير التى تعضد بها موقفها تجاه مسألة الصراع العربى الإسرائيلى حول مسألة الأرض، فى إشارة إلى أن قصص الآباء فى المقرا التى يعتمد عليها نهج " شامير " / " ميخائيل " السياسى هى قصص مختلقة ومن الممكن إنتاج مثلـها بسهولة وبلا حدود، ويستطيع أى كاذب أن يختلق قصصا يحقق بها أهدافا لا يمكن تحقيقها فى الواقع.

وهكذا، تشير دلائل فشل " يعقوب " فى إعداد وريث لـه إلى اقتراب موعد الجولة الثانية فى الصراع، التى ستحسم فيها قضية الصراع على أرض فلسطين كما يحاول " شاليف " أن يحذر.

إن النقطة المحورية التى يحاول أن يتمركز حولـها " شاليف " ليبين لنا موقفه من أسطورة المقرا وخطر الاعتماد عليها هو أن استلاب الحق لم يهدئ من روع القضية، لأن الطرف الآخر لن يصمت. وربما نجح شاليف فى التعبير عن هذا من خلال إقحام بعض الشخصيات السياسية الإسرائيلية فى الرواية. وإذا نظرنا إليها سنجد أن بعضها شخصيات يمينية متطرفة _ شامير _ وهى التى تتبنى سياسات الترحيل الجماعى وأيديولوجية أرض

([1])يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص68).

([2])مئير شاليف: "عيساف" (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص395).

إسرائيل الكاملة. ولتعضيد رؤيته فى الصراع، أسبغ " شاليف" على هذه الشخصية اليمينية المتطرفة صفات تهكمية تعبر عن سخط ومقت، وتحذر من التنبؤات الزائفة.

" لقد كتبت رواية (عيسو) للسخرية من الأسلوب السياسى للمعسكر القومى فى السياسة الإسرائيلية. والعنصر العام فى هذه الرواية ينحصر فى أن ميخائيل / شامير يؤكد على حل النزاع العربى الإسرائيلى من خلال يمينيته، وعن طريق حلول صعبة التحقيق مثل: أرض إسرائيل الكاملة سوف تبقى فى أيدينا، وأن العرب سوف يحظون بالاعتراف، ولكن عليهم أن يتخلوا عن مطالبهم فى الميراث وحقهم فيها. معنى أن وريثاً واحداً سوف يأخذ الميراث كلـه، أما الوريث الثانى فسوف يوافق على تخليه عن حقوقه فيه " [1]. وهو خطأ كبير يقع فيه اليمين الإسرائيلى وكل من يظن أن الحل المقرائى حول مستقبل فلسطين من الممكن تحقيقه بين نسل "يعقوب" و"عيسو".

ويبدو فى هذه الرواية أن أبناء " يعقوب " يمثلون رموز الســياسة الإسرائيلية فإذا كان " ميخائيل " يمثل اليمين الإسرائيلى، فإن " رومى " ابنته تمثل اليسار الإسرائيلى، وترمز إلى حركات السلام الإسرائيلية، وبعيداً عن برامج هذه الحركات وجديتها فى الحل، فإن العلاقة التى جمعت بين " رومى " وعمها " عيسو " والتى تحاول فيها " رومى " أن تعيد حق عمها المسلوب تشير إلى فشل يعقوب فى استمالة " رومى " تجاهه من ناحية، وفشل الصهيونية فى إعداد الوريث المؤهل لمواصلة العمل على استلاب الحق ومواصلة المسيرة من ناحية أخرى.

إن حرص " رومى " على تخليد أبيها يعقوب فى معرض الصور الفوتوغرافية الذى أطلقت عليه (أبى) إنما هو معرض للعبرة والتاريخ، وبخاصة أنها كانت تصور أبيها فى أوضاع مخجلة ومحرجة. لقد كانت تصور الأسرة كلـها فى أى وقت وفى أى مكان وكأن هذه الصور سوف تكون شهادة تاريخية على انتهاء دور أصحابها فى الصراع.

" وعبرت رومى من خلال هذا التخليد عن توقعاتها للنهاية المفاجئة والدرامية للنزاع بين الأخوين: سوف يدفع يعقوب ثمن خطئه تجاه عيسو الذى حدث منذ أربعين عاماً. ولن يكون عيسو قريباً من المخبز والميراث. هكذا يظن شاليف أيضاً فيما يمكن حدوثه عن طريق رومى من نتــائج للنــزاع بين العرب واليهــود على فلسطين إذا استمر اليمين فى قيادة الدولة " [2].

(ج) انتهاء دور يعقوب فى الصراع:

([1])يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص69).

([2])يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، (ص70).

لم يعد ليعقوب أى دور يقوم به فى مواصلة الصراع ضد أخيه بعد وفاة أمه " سارة " من ناحية، وفشلـه فى إعداد ابنه ميخائيل كوريث، ومقتل ابنه بنيامين فى حرب 1967من ناحية أخرى، وهو الحادث الذى قصم ظهر الأسرة كلـها وأطاح بها، حيث خارت قوى "يعقوب" وزوجته " ليئة " التى ظلت طريحة الفراش منذ مقتلـه. وهنا تصبح الحلبة مهيأة ليصول بها عيسو ويجول وقتما يشاء، وتتداخل الحبكة الدرامية حسبما صاغها شاليف ليمرض أبراهام ويتم استدعاء "عيسو" من منفاه ليرعاه.

لقد كان موت " سارة " بمثابة موت " يعقوب "، وبخاصة أنها الوحيدة التى كانت قادرة على قيادة دفة الأمور وتسييرها لصالح ابنها يعقوب، وبعد مـوتها يتوقـع يعقوب ما سيحدث لـه، حيث يرسل خطاباً لعيسو وهو فى أمريكا بعد وفاة أمه يقول فيه:

" والآن سوف يتبدد كل شئ. سوف ينهار كل شىء ... لقـد كانت تربط الكل معاً. وتياه دودوتش لا تستطـــيع أن تفـعل هذا، وليئـة مازالت صغيرة، وأنا لست امرأة " [1].

وقد تعددت مظاهر انتهاء دور يعقوب فى الرواية، حيث تغيرت ملامحه للأسوأ وكأنه يفسح الطريق فى الجولة الثانية أمام أخيه "عيسو" لاسترجاع حقه المسلوب:

" شاخت كفى يعقوب عن سائر جسده ... واحمرت أطراف أصابعه للغاية ... وأصبح ظهر يده محروقاً ومجعداً بفعل لـهيب الحجارة " [2].

لقد أدرك يعقوب مصيره، وهو السقوط والموت. وقد اعترف بذلك أمام أخيه "عيسو":

قال لى: " سوف أسقط ذات يوم ببساطة، وسوف أموت هنا " [3].

ولم يكن هذا فحسب، بل تسللت الوحدة إليه وأصبح طاعناً فى السن على الرغم من أنه لم يبلغ الخامسة والخمسين من عمره:

" أصبح يعقوب ليفى رجلاً منغلقاً على نفسه وقد أصابته الحروق قليلاً، ولم يكن فى حاجة إلى كتب ليدرك لماذا يبدو طاعناً فى السن وهو فى عمره هذا. لقد بلغ الخامسة والخمسين من العمر، وعرفت الوحدة طريقها إليه جيداً " [4]

وفجأة، يطالعنا شاليف بيعقوب وهو طريح الفراش، ويرقد فى المستشفى فى حالة صحية سيئة:

([1])مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص331).
([2])نفس المرجع، (ص241).
([3])نفس المرجع، (ص242).
([4])نفس المرجع، (ص369).

" رقد يعقوب ثلاثة أيام فى المستشفى، ... وكان كل جسده يرتعد، ودرجة حرارته تعلو وتنخفض " [1].

وتزداد حالة يعقوب الصحية سوءاً، ثم يعود إلى المنزل:

"عاد إلى البيت متعباً وشاحباً، وجلس على الكرسى الـهزاز الذى فى الشرفة، ونزع ضماداته من يده، لكى يجفف جراحه فى الـهواء والشمس" [2].

وتبدو بوادر فوز "عيسو" بالجولة الثانية فى الصراع واستسلام " يعقوب " فى ذلك الحديث الذى دار بينهما بعد عودة "عيسو" من أمريكا، حيث يقول " يعقوب لـ"عيسو" :

قال لى: " لا أستطيع أن أسوى حسابات قديمة، ماذا تريد ؟ هل تريد أخذ المخبز الآن ؟ وتأخذ ليئة ؟ إنك تستطيع أن تأخذهما. إنك تستطيع أن تأخذ كل شىء " [3].

وهكذا، يعرض "يعقوب" على أخيه "عيسو" حقه المسلوب بكل سهولة، فهو يعرض عليه المخبز ويعرض عليه زوجته التى أخذها منه عنوة بمساعدة أمه. لقد شعر "يعقوب" بأن دوره فى الحياة قد انتهى بعد وفاة أمه، وفشلـه فى إعداد وريث يرث المخبز من بعده، وبعد أن تهدمت حياته الأسرية وقصمته الظروف والأحداث التى ألمت بزوجته وأبنائه، وكأنما شاليف يدير حلبة الصراع ليفسح الطريق أمام فوز عيسو فى الجولة الثانية.

ويكمن تعبير " شاليف " عن أفول نجم الصهيونية وعن النهاية القريبة لمشروعها فى تلك الأوصاف التهكمية التى أسبغها على "يعقوب" فى معرض إعداده للمسرح الذى سيعتليه " عيسو " لاسترجاع حقه المسلوب، حيث وصف "يعقوب" بالفنار الذى بنى خطأً فوق اليابسة:

" بدا لى يعقوب مثل فنار بنى عن طريق الخطأ فى قلب اليابسة، ويعطى إشارات لسفن غير موجودة ولا تقترب " [4].

وفى الفصل الأخير من الرواية يذهب " شمعون " والعمة " دودوتش " إلى " عيسو " فى تل أبيب ليـــأتيا به إلى بيت " يعقوب " ، حيث كان أبوه "أبراهام" يحتضر، وبعد موت أبيه يجلس "عيسو" ليشتم رائحة الخبز فى أنفه. ويرسم لنا "شاليف" نهاية الرواية فى إشارة إلى احتمالية فوز "عيسو" بالجولة الثانية، حيث توقف المطر فى الخارج وصفت السماء وأتت الرياح برائحة الخبز إلى " عيسو " :

([1])نفس المرجع، (ص242).
([2])نفس المرجع، (ص242).
([3])مئير شاليف: " عيساف " (عيسو)، رواية، مرجع سابق، (ص321).
([4])نفس المرجع، (ص70).

" وهكذا جلست. بعد ذلك تصاعدت رائحة الخبز الطيبة إلى أنفى، يالـها من رائحة لخبز طازج تم خبزه من أجلى. فقمت وخرجت إلى الخارج. وإذا بالمطر قد توقف بالفعل، وأصبحت الســماء صافية، وهبت الرائحة من مخبز أخى يعقوب " [1].

وهكذا، أنهى شاليف آخر سطور الرواية بتلك الكلمات، حيث توقف المطر وصفت السماء، أى اقترب الحق من العودة إلى " عيسو " بعد أن سلب منه. وتشير رائحة الخبز الطازجة إلى حياة جديدة سوف يعيشها " عيسو " بعد سنوات عديدة قضاها فى المنفى ليعود ويرث أرضه ومخبزه فى تحذير شديد اللـهجة من " شاليف " بأن الجولة الثانية فى الصراع سـوف تكون لصالح " عيسو "، وأن الأسطورة المقرائية التى تبنتها الصهيونية واتخذها اليمين الإسرائيلى منهجاً فى الصراع لن تدوم طويلاً، ولن تقوى على الصمود فى وجه رياح الخبز العاتية الصادرة من الرواية، لأنها رياح تحمـل الكثير من الآمال لصالح " عيسو " وتحذر من يؤمنون بتلك الأسطورة، ولأن لـهيب الأحجار التى اكتوى بها " يعقوب " فى المخبز وبدا فى نهاية أيامه مصطلى اليدين بفعل الحروق من شأنها أن تصيب من يؤمن بتلك الأسطورة مثلما أصابت " يعقوب " وأنهت على حياته. .

(د) إثبات الحق العربى (الفلسطينى) فى الأرض:

كان موقف "شاليف" من أسطورة المقرا التى تحل الصراع بإبقاء الميراث فى يد أحد الأخوين واضحاً عبر صفحات هذه الرواية فى محاولة لإثبات الحق العربى الفلسطينى فى هذه الأرض. وسواء كان هذا عن قصد أو عن غير قصد، فقد نجح شاليف إلى حد كبير فى إثبات هذا الحق، لا سيما أنه قد طالعنا على لسان بعض شخصيات الرواية بكلمات وجمل وأماكن عربية عديدة تشير جميعها إلى جذرية الوجود العربى فى هذه الأرض من ناحية وتدحض أسطورة الصهيونية وتحطمها من ناحية أخرى وهو ما فعلـه أيضاً فى روايته السابقة (رواية روسية) ؛ لتؤكد من جديد على استحالة انتهاء دائرة الصراع بهذا الشكل، وتحذر من أن الجولة الثانية من شأنها أن تكون لصالح عيسو الذى غبن حقه طوال سنوات عديدة راح فيها ضحية للظلم والقهر واستلاب الحق.

ويمكن لنا أن نتبين جذرية الوجود العربى فى أرض فلسطين من خلال إتيان شاليف بالعديد من الأسماء والأماكن والمصطلحات العربية على لسان شخصيات الرواية، وهى على سبيل المثال كالتالى:

الأماكن العربية:

(1) نفس المرجع (ص397).

العمورة البيضاء (الرواية ص 33).
سرايا (الرواية ص 36).
ضاحية أبو بصل (الرواية ص 34).
باب الزهرة (الرواية ص 48).
حمام العين (الرواية ص 51، 53، 221).
وادى الحرمين (الرواية ص 61).
سوق العطارين (الرواية ص 73).
حبس العبيد (الرواية ص 77).
دير أيوب (الرواية ص 83).
بعلبك (الرواية ص 213).

جمل وكلمات عربية :

يا تعبان (الرواية ص 78).
افتحي الباب ياست مريم (الرواية ص 235).
يلّلا (الرواية ص 293).
أهبل (الرواية ص 364).
حرام (الرواية ص 391).
يا أخى (الرواية ص 391).
أبونا (الرواية ص 30).

أسماء عربية :

الوليد (الرواية ص 30)
كشك(طعام من الجبن اللاذع) (الرواية ص 40).
أبو العافية (الرواية ص 43، 62).
أبو الحزام (الرواية ص 58).
بنت السلطان (الرواية ص 75).
مشمش بلدى (الرواية ص 89).
جميلة (الرواية ص 89).
نسيم القلعى (الرواية ص 99).
طربوش (الرواية ص 190).
الوالى (الرواية ص 213).

obeikandl.com

وهكذا، امتلأت صفحات هذه الرواية التى قاربت الأربعمائة صفحة بمثل هذه الكلمات والجمل والمصطلحات العربية الدارجة، مما يدل على يقينية " شاليف " بأن الوجود العربى الفلسطينى على الأرض المتنازع عليها سيلعب دوراً حاسـماً فى نتيجة الجولة الثانية من الصراع. وبعيداً عن السؤال المطروح، هل يعد " شاليف" فى هذه الرواية منصفاً للحق العربى الفلسطينى ؟ أم أنه محذر فقط من صلف اليمين الإسرائيلى المتطرف ؟ فإن" شاليف " آثر مبايعة الحقوق العربية إلى جانب الحق اليهودى على حد سواء، لاسيما أنه استخدم كلمة "فلسطينا" (الروية ص 59، 189) عدة مرات التى قلما نجد أديبا إسرائيليا يستخدمها فى أعمالـه الأدبية إلى جانب كلمة" ايرتس يسرائيل " الشائعة لدى سائر الأدباء الإسرائيليين وهو ما فعلـه أيضاً فى روايته السابقة (رواية روسية).

ويمكن القول أيضاً، إن " شاليف" فى أحيان كثيرة من الرواية بدا محذراً أكثر من كونه منصفاً، لأنه لم ينه الرواية بالفوز الحقيقى الملموس لعيســو فى الجولة الثانية، وترك النتيجة – وإن كانت واضحة ـ عرضة للتأويلات والتحذيرات لليمين الإسرائيلى المتطرف ؛ مما يدل على أن بعض الأدباء الإسرائيليين الذين يتعرضون للصراع العربى الإسرائيلى تحت شـعار (المساواة فى الحقوق) لا ينكرون الحق اليهودى فى الأرض، بل يعرضونه على قدم المساواة مع الحقوق العربية المشروعة.

والجدير بالذكر أيضاً، أن شاليف قد تعرض فى روايته هذه إلى الدور الأمريكى فى حل هذا الصراع من خلال تلك الشخصية المجهولة التى كان يتحدث إليها " عيسو " وهو فى أمريكا عن صراعه مع أخيه " يعقوب". وإذا كان " أورن " كناقد إسرائيلى يرى " أن هذه الشخصية كانت لغزاً يكمن فيه الـهدف الفكرى من الرواية، وأن مجهوليتها تجعل منها هيئة قضائية محايدة، ومن خلالـها تظهر الحقيقة. وأنه من المستحيل أن نتوقع عدلاً من هؤلاء المعنيين بالصراع نفسه، وأن هذه الشخصية تقوم بدور متوازن غير مشبوه فيه من شأنه أن يحكم دون رياء أو محسوبية " [1]، فإننا نرى أن الطرف الأمريكى لم يكن قط محايداً بل منحازاً للجانب الإسرائيلى ؛ لاعتبارات سياسية واقتصادية كثيرة. وبالتالى فإن شاليف يعرض هذا الدور من منطلق مسايرة الواقع الماثل أمامه ليس أقل أو أكثر، وليدلل مرة أخرى على مقصده وهدفه من هذه الرواية التى تعد صرخة مدوية ضد اليمين الصهيونى المتطرف وضد الرؤى الإسرائيلية السياسية التى تعتمد على الأساطير التوراتية فى حلـها للصراع القائم منذ سنوات طوال.

(1)يوسف أورن: " هاعيط كشوفار بوليطى، عيسر ماسوت عل هارومان هابوليطى باسيبورت هايسرائيليت "، مرجع سابق، (ص61ـ62).

وتبقى فقط الصهيونية " شأنها شأن كل الحركات الاستيطانية الإحلالية تدور فى إطار الرؤية المادية الداروينية التى حولت العالم بأسره إلى ساحة للقتال والصراع: البقاء فيها لصاحب القوة وليس بالضرورة لصاحب الحق ... وهى شأنها شأن أية حركة استيطانية أخرى تقوم بإنكار التاريخ: تاريخ الجماعات اليهودية وتاريخ الشعب المستهدف الذى يود المستوطنون الاستيلاء على أرضه " [1].

(1) د. عبد الوهاب المسيرى: تفكيك الصهيونية، مجلة سطور، العدد 38، يناير 2000، (ص 10).

obeikandl.com